الفصل الثالث

مقالات في الدعوة والتذكير[1]

أولاً: نظرات في الدعوة وتجديد الخطاب الديني

◈ مقدمة:

إن الدعوة الإسلامية اليوم تشكل الشغل الشاغل لكل مسلم غيور، وهذا ما يفكر به العلماء والدعاة المخلصون، ويبحثونه في كل آونة للمراجعة، والمحاسبة، والإعداد، والاستعداد، ورسم الخطة والطريق السديد في المستقبل، والتعامل مع شعار «تجديد الخطاب الديني» بدلالته الصحيحة الشرعية، وبيان مقاصد الأعداء من إثارته المشبوهة، وأغراضه الخبيثة.

ولذلك كتبت هذه النظرات باختصار شديد، لعلها تساهم في معالجة هموم الدعوة، وتعرض مشاكل الدعاة، وتنير الطريق للمستقبل، لأداء الرسالة المنوطة على العلماء، والمتمثلة بالآية الكريمة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، مع التأسي بمنهج إمام الدعاة سيدنا محمد ﷺ، وتتبع خطا السلف الصالح، العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، وخاصة في هذا الزمان التي تردى أهله، وكثرت مشاغله ومشاكله وأعداؤه، وأصبح الإسلام في قفص الاتهام، وصار المسلمون عاراً على الإسلام، ونسأل الله التوفيق والسداد، والعودة إلى جادة الصواب.

---

(١) للمزيد انظر: تجديد خطبة الجمعة ضرورة تمليها تطورات المجتمع = فصل ١٧ خطب.

أولاً: صفات الداعية:

يجب أن يتوفر في الداعية صفات خاصة تمثل الحد الأدنى لعلمه، ثم يتم التفاوت حسب القدرات والمؤهلات والنشاط فمن ذلك:

١- **نظرة عقلية** واقعية، تصويرية لا نظرية.

٢- **حياة روحانية** يحياها فيما وراء المادة بشرط أن تكون اجتماعية، لا انعزال فيها عن الناس.

٣- **الأخذ بالأسباب**، فإنها قوانين الله وسننه، وعدم التعويل في الدعوة على خوارق العادات، والغيبيات.

٤- نظرة **إيجابية** تنفيذية لا سلبية.

٥- تجنب **الازدواجية** في الدعوة والتطبيق والسلوك.

٦- يجب أن يكون **فقه الداعية** وثقافته واسعة، وشمولية، وعميقة.

٧- تجنب **التطرف والمغالاة** في الدِّين والسلوك والفكر والوعظ والتذكير والدعوة.

٨- وضوح الفكرة الإسلامية والتصور الإسلامي عن الله والكون والحياة والإنسان، وما يتعلق بأركان العقيدة الصحيحة، وفروعها المرتبطة بها، كالرزق، والموت، والدنيا، والمغيبات.

٩- الابتلاء أحد العوامل الأساسية في طبيعة الدعوة الإسلامية، سواء كان ابتلاء في النفس أو المال أو الولد، لذلك يجب أن يضع الداعي ذلك في حسابه واعتباره، ليتحلى بالصبر، ويحتسب الأمر عند الله تعالى، وله في كل ذلك الأجر والمثوبة.

ثانياً: أساليب الدعوة ومنهجها:

١- الاعتماد على **حيوية الشباب** ونشاطهم وطموحهم، **وخبرة الشيوخ** وتجاربهم وحكمتهم وعقلهم، **وإلا وقع البلاء.**

٢- الأخذ **بالأولويات**، والاعتماد اليوم على الأركان والأسس والقواعد، ويترك لصغار الدعاة والمعلمين والخطباء والمدرسين تكميل الطريق **ومتابعة الفروع**، وتوضيح الأحكام وعرضها بشكل صحيح، مع الاعتدال والوسطية.

٣- الاعتماد **على التدرج**، حتى في تربية المسلم، ومعالجة فساد المجتمع، واقتلاع البدع والانحراف والضلال تجنباً للإثارة أو التحزب ضد الدعوة.

وهذا يتفق مع التدرج في التشريع، والتدرج في التطبيق، والتدرج في الوسائل، والتدرج في الغايات.

٤- العمل **على جميع المستويات**: الفردية، الاجتماعية، الرسمية، الحكومية، المؤسسات، الداخلية والخارجية، الطلابية والعمالية والشعبية، والمساجد والمراكز والمدارس وأجهزة الإعلام المختلفة.

٥- **التزام الشورى** في جميع مجالات الحياة، وخاصة في الدعوة، لتشعب الأمور وكثرتها واختلاطها، وإلا وصل المسلمون إلى الوثنية في تقديس الأشخاص، أو الديكتاتورية الذاتية الطاغية التي حذر منها الإسلام.

٦- الاستفادة من **تجارب الدعاة** في القديم والحديث، من المسلمين ومن غيرهم، وخاصة الحركات الإسلامية في العصر الحاضر في العالم الإسلامي، وعند الأقليات المسلمة.

٧- الاستفادة في الدعوة من التقنية الحديثة، وفي قمتها الإنترنت والحاسب الآلي وسائر الأجهزة، من الكتاب، والنشرات، وأشرطة التسجيل، والمذياع، والتلفاز، والفيديو، وكل ما يستجد.

٨- التعرف على **مشكلات الدعوة** لمعالجتها والخروج منها، وهذه المشكلات كثيرة يجب التعرض لها ودراستها وبحثها.

٩- التعرف على **مشكلات الداعية** لحلها والتغلب عليها، لأنها تمثل عقبة كأداء في نجاح الدعوة، وقد تنقلب الدعوة بسببها رأساً على عقب.

١٠- الاهتمام بحسن التنظيم والتخطيط وإعداد الخطط ودراستها قبل تطبيقها، ثم تقييمها بعد تطبيقها.

١١- تجنب **ادّعاء الوصاية على الإسلام** والمسلمين، أو حصر العمل في مفهوم خاص، ليعتبر الداعي ما عداه ضلالاً وباطلاً وبدعة وانحرافاً، فالدعاة خدم للأمة، عمّال في الدعوة، أجراء للّه، أجرهم منه بمقدار كسبهم فحسب، وهم مجتهدون فيما لا نص فيه، وكل مجتهد له أجر، ويتضاعف إن أصاب، ثم يتضاعف إن نجح.

١٢- تجنب أمراض بعض الدعاة، كالتعالي، والكبر، والوصاية، والتسلط، وحب الذات، وادعاء العصمة، وفرض الولاء على الغير، والتطرف والغلو في الدّين وفي السلوك.

١٣- استخدام طريق الوعظ والإرشاد، **والنصح** لله، **والترغيب والترهيب**، كل بحسب حاله.

ثالثاً: وسائل الدعوة وغاياتها:

١- تقديم الإسلام **كبديل لحل أزمات** العالم الأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية والعقدية، والتشريعية، فمن ذلك وحدة الجنس

البشري ومحاربة العنصرية، والمساواة بين الشعوب والأمم، والجمع بين الدين والدنيا، وإقامة التوازن بينهما، والربط بين العقيدة والشريعة، والتنسيق بين الأخلاق والتشريع، وتكريم الإنسان، واحترام إنسانية الإنسان ولو كان فاسقاً أو كافراً، مع الدعاء له ودعوته للهداية.

٢- إن المعركة اليوم **فكرية**، وهي جهاد إعلامي، وتهيئة واستعداد وتخطيط، ولا مجال للجهاد بالقتال إلا عند الاحتلال، ثم عندما تحين الظروف لذلك، فالدعوة اليوم تشبه ما كانت عليه في العهد المكي.

٣- **النقد الذاتي** التريه للتجارب والحركات في القرن العشرين في الأساليب والوسائل، وتحديد الأولويات.

٤- **الإخلاص في العمل**، وإبعاد الأنانية والذاتية والمطامع الفردية والمصالح الشخصية.

٥- وجوب التفريق في الدعوة بين الممارسات وأعمال المسلمين عامة اليوم، وبعض العلماء خاصة، وبين الإسلام حقيقة وديانة وعقيدة وسلوكاً وهدفاً ورسالة.

٦- أن يوضع بالاعتبار قول العلامة الداعية الشيخ محمد الغزالي عند تشخيص الواقع في «جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج» وقوله «يجب أن نعرف الفرق بين أسلوب الدعوة وبين عمل الدولة».

٧- توحيد الصفوف بين جميع المذاهب والطوائف، لأننا أمام عدو واحد ماكر ولأننا أمام معركة وجود، فالحرب في فلسطين وأفغانستان والعراق والشيشان وكشمير والفلبين لم تفرق بين أتباع الصوفية والسلفية، وأتباع المذهب الحنفي والشافعي، ولا بين الشيعي والسني.

٨- استخدام الوسائل الإعلامية الحديثة بجميع أنواعها المسموعة والمرئية والمقروءة، والتركيز على مواكبة العصر والتقنيات المعاصرة ؛ لأن الناس التفت نحو هذه الوسائل الحديثة، ولأنها تؤمن الذيوع والانتشار والايصال لأوسع شريحة في المجتمع المحلي والدولي من سائر البشر، مع الاستفادة من وسائل الاتصال المباشرة شخصياً.

٩- الاستعانة بجميع لغات الشعوب والأمم، وخاصة اللغات الحية لسعة انتشارها وسماعها.

١٠- الأخذ بعين الاعتبار التغيير بالوسائل والأساليب والسبل التي لا تمس الحقيقة والجوهر.

رابعاً: التركيز على الوسائل والغايات الطارئة، وهي:

١- بيان حقيقة الإسلام ومبادئه وأهدافه.

٢- الرد على الشبهات والافتراءات الموجهة إليه.

٣- الاعتماد على الحقائق، والتزام العقلانية في الخطاب والدعوة.

٤- الاستفادة من العلم **والتقدم العلمي** لبيان **الإعجاز العلمي** والتشريعي والفكري للقرآن والسنة.

٥- تجنب **المصطلحات البائدة** التي ذكرها الفقهاء بحسب عصرهم وليست موجودة في النصوص الشرعية كدار الحرب ودار الإسلام، أو الأفكار التي تنبت مع الدولة كالمذهبية والطائفية.

٦- التركيز على **الجهاد بالعلم**، ونشر الدعوة، وتبليغ الرسالة، وخاصة في البلاد الأوربية والأميركية واستراليا وشرق آسيا.

وتجنب الحديث عن جهاد القتال إلا في البلاد المحتلة عسكرياً.

٧- تجنب الوقوع في الشراك **التي ينصبها** الأعداء للتمويه والمتاجرة ورفع الشعارات البراقة، وكشف حقيقتها، وعدم التزام الأعداء بها، مثل: تحرير المرأة، والديمقراطية، والعولمة، والاشتراكية، والإرهاب، والأصولية الدينية، والحرية، والنظام العالمي الجديد، والتحرير من الحكام المستبدين، وأسلحة الدمار الشامل، وتهديد الأمن العالمي، واتفاقية الجات والتجارة الدولية.

٨- مراعاة الظروف والمناسبات واختلاف البيئات والأعراف والعادات والثقافات.

خامساً: مكائد الأعداء وأساليبهم:

إن مكائد أعداء الإسلام كثيرة وعميقة وخفية ضد الدعوة وضد الإسلام، ولكن الأيام كشفت وتكشف عن بعضها، فمن ذلك:

١- تعيين **الحكام الموالين للأعداء**، والمنفذين لمخططاتهم، والراعين لمصالحهم، والحامين لأعوانهم.

٢- **المستغربون من المفكرين** والكتاب والأدباء ورجال الإعلام الذين يلبسون لباسنا، ويرطنون بلغتنا، ولكن المضمون والجوهر حسب ما يوحي إليهم الأسياد والأعداء، والمربون.

٣- **الإعلام العالمي** الذي سيطر عليه الأعداء، وخاصة الصهيونية العالمية في أرجاء العالم، ويعاونهم العلمانيون والملحدون والمنافقون والمرتزقة من الداخل.

٤- **المؤتمرات والندوات** التي يقصد منها تسويق الفكر المعادي في مختلف الجوانب الاقتصادية والفكرية والاجتماعية والتربوية والسياسية، كمؤتمر بكين والقاهرة والمكسيك والبرازيل.

٥- **التدخل في الشؤون الفكرية والتربوية** في البلاد، وكان ذلك سراً في القرن العشرين، وأصبح جهاراً نهاراً في القرن الحادي والعشرين، وينفذه الحكام ووزراء التربية والثقافة في الداخل.

٦- **الهيمنة العسكرية** والسيطرة المادية، سواء من جهة الأشخاص والضباط والجنرالات والدورات العسكرية التي يعقدونها لهم، وخاصة في بلاد الأعداء، أو التقنية والسلاح وقطع الغيار التي يستعبدون بها الشعوب والحكام.

٧- **تسخير أجهزة الأمم المتحدة**، مثل مجلس الأمن، وسائر الهيئات الدولية والإقليمية، كالبنك الدولي، واليونسكو، والمنظمات الصحية، والبيئية غيرها.

٨- **الانقلابات العسكرية** التي تطبخ وتصنّع في السفارات الأميريكية وغيرها، ليتحكم العسكر بالرقاب، ثم يتلقون الوحي من الخارج.

٩- **استغلال الأقليات**، حسب مبدأ «فرّق تسد» كما هو الشأن مع الأكراد والأرمن والبربر، وجنوب السودان، وبواقي اليهود، واستغلال الطائفية في معظم البلاد، ثم القبلية.

١٠- **تحريك العملاء** وشراء الذمم، وتسخيرهم كالأبواق لنقل وبث دعايات الأعداء وأفكارهم.

١١- **الاختراق في المنظمات المحلية والأحزاب** الدينية، وتحريكها أحياناً، كاستغلال بعض المجاهدين في أفغانستان، (ثم استغلال طالبان والقاعدة بأساليب مختلفة).

١٢- **البعثات التنصيرية** في سائر أنحاء العالم، واستغلال المدارس والمستشفيات والرياضة للتنصير والتشكيك في الإسلام.

١٣- **أجهزة المخابرات** العالمية، والدولية، والمحلية، وما يجري بينها من ترابط وتنسيق وتعاون يندر وجوده في سائر الأجهزة الأخرى.

سادساً: أهداف الأعداء:

إن أهداف أعداء المسلمين اليوم وفي القرن الخامس عشر الهجري تتمثل بما يلي:

١- الإسلام هو الهدف الأول للتشويه والإلغاء.

٢- الاستيلاء على ثروات المسلمين.

٣- احتلال الموقع الجغرافي للعالم العربي والإسلامي، وفرض الوجود الأجنبي، وإقامة القواعد العسكرية، والعملاء في الحكم.

٤- تحقيق أهداف الصهيونية التوراتية في فلسطين وما حولها.

٥- تنصير المسلمين أو إخراجهم عن دينهم على الأقل.

٦- تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وتصويرهم بأبشع الصور، وهذا هدف مرحلي.

سابعاً: تجديد الخطاب الديني:

يجب تجديد الخطاب الديني، للضرورات الدعوية، مع التحرز من خلط الأوراق في ذلك، وبيان سبق النص الشرعي للدعوة للتجديد، وقيام الدعاة بذلك، وظهور المجددين في كل عصر، وخاصة في العصر الحديث مع بيان ما يلي:

١- الأسس والمرتكزات والقيم **لا تتغير ولا تتبدل**.

٢- إن المبادئ الإسلامية **ثابتة** لا مجال فيها للتغيير والتبديل.

٣- إن تجديد الخطاب الديني يشمل أمرين:

(أ) **الوسائل والأساليب** والطرق، وهذه تختلف من وقت لآخر حسب المعطيات والتقنيات، وتختلف حسب الأوقات والأزمات، ولذلك قالوا «لكل مقام مقال» وقالوا «الخطاب حسب مقتضى الأحوال».

وهذا ما طبقه المسلمون في التاريخ الإسلامي فوسائل الدعوة اختلفت من العصر النبوي إلى العهد الراشدي، فالأموي فالعباسي، ويجب أن تختلف اليوم عما سبق.

وطرق البيان لمبادئ العقيدة والإسلام ليست محصورة ولا محددة، ولذلك جاء الإعجاز القرآني فيه بالطلب العام المجمل الذي يترك تفصيله حسب الأشخاص والأزمان والأمكنة، فقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ والحكمة كلمة جامعة وهي وضع الشيء المناسب في محله حسب مقتضى الأحوال.

ولكن الإسلام وضع لذلك **آداباً للدعوة** كالبعد عن **الشدة والغلظة** التي تنفر، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

(ب) الأمر الثاني مما يختلف فيه الخطاب الديني هو ما يدخل تحت مبدأ «**السياسة الشرعية**» التي يتولاها ولي الأمر أو أهل الحل والعقد، أو العلماء والدعاة سواء كان ذلك في السياسة الداخلية مع الرعية والمواطنين، أو كان مع الدول والحكام خارج الدولة، ومع الأعداء، والدول التي يعقد فيها الإمام أو رئيس الدولة علاقات صلح وودّ وحسن جوار وتعاون تجاري وثقافي وعسكري.

٤- طرح شعار تجديد الخطاب الديني:

هذا **مجرد شعار** كغيره من الشعارات السابقة البراقة التي تطرحها الدول الاستعمارية، كشعار الاستعمار لإعمار البلاد، والانتداب، والحماية، وكلها قرصنة واحتلال وليس المهم طرح الشعارات، ولكن المهم معرفة ما وراءها من نوايا ومخططات ومؤامرات تحاك في الخفاء، وترسم لها الخطط، ويهيأ لها الكوادر للتنفيذ، وهي حرب إعلامية نفسية للتأثير على العوام وضعاف النفوس.

إن هذا الشعار طرحه كثير من علماء المسلمين المعاصرين مثل محمد إقبال في كتابه «تجديد الفكر الديني» والعقاد، ومحمد عبده، والكواكبي، والبهي، ويوجد في المكتبات اليوم كتاب «المجددون في الإسلام».

والمهم النية الصادقة والمضمون الصحيح، والإخلاص في العمل، وليس مجرد المتاجرة، والتغطية عن أهداف أخرى كالمصالح الشخصية، والأنانية الفردية.

وقد ثبت في الحديث الشريف «إنَّ الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها».

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، أو من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون».

وهذا تجديد من ناحيتين:

١- إزالة **ما علق** بالدعوة من **بدع وانحرافات وضلالات**.

٢- إعادة الإسلام الصحيح إلى التطبيق والحياة بعد تجميده، أو البعد عنه.

لذلك نرى أن الخطاب يجب أن يتناسب مع الظروف والمناسبات، والزمان والمكان، مع وجوب **التنسيق** باستمرار بين **العقل والوحي** وإبراز

التوافق بينهما، ووجوب تلازم العلم والإيمان، لأن الإسلام دين العلم من جهة، وهو وحي إلهي من جهة ثانية.

ونؤكد أن الإسلام بخير، ولا خوف عليه، ولكن الخلل والخطر على الحضارة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، وعلى المسلمين أنفسهم، وهذا ما قصده العلامة الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى في عنوان كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

كما يجب أن نراعي المنهج الصحيح للدعوة الإسلامية والرد على التشويه، آخذين بالاعتبار ما يلي:

١- إن الصراع بين الحق والشر **أبدي**، بدأ مع آدم في الجنة، ولن ينتهي إلا في الجنة والنار.

٢- وإن التشويه للإسلام والطعن فيه، والتشكيك في مبادئه، موجود **منذ بعث** محمد ﷺ وهو القرشي الهاشمي الصادق الأمين باعتراف قومه، ثم اتهموه بالسحر والكذب والجنون.... وغير ذلك، واتهم بذلك كبار الخلفاء والعلماء والدعاة.

٣- إن هذا التشكيك والطعن متوفر طوال التاريخ الإسلامي.

ولكن نقول ما قاله القرآن الكريم ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ونقول: أين نظريات وأحكام وتشريعات **حمورابي وأفلاطون والتتار** وحتى المستعمرين الغربيين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين؟

لم يبق لها أثر وزالت من الوجود، **وبقي القرآن والإسلام والمسلمون.**

ثامناً: ضوابط تجديد الخطاب الديني:

١- أن يكون التجديد في **الشكل والأسلوب** فقط.

٢- وجوب المحافظة على **المضمون والأصل** لبيان حقيقة الإسلام ومبادئه وغاياته.

٣- يجب **الصدق، والإخلاص.**

٤- يجب تقديم **العمل** على القول.

٥- يجب الأخذ بالأولويات، والبدء بالأهم فالمهم، والأصول ثم الأركان ثم الفروع.

٦- الرد على **الشبهات والافتراءات.**

٧- الاعتماد على **الحقائق الشرعية** والعقلانية.

٨- **تجنب المصطلحات البائدة،** دار الحرب، التكفير، المذهبية، الطائفية.

٩- تجنب **الوقوع في الشراك** التي ينصبها الأعداء، كما سبق.

١٠- وحدة الصف الدعوى لوحدة العدو الذي لا يفرق بين فئة وأخرى، **وقد يتقبل بعض الفئات مرحلياً ثم ينقض عليها.**

١١- التزام الحكمة والموعظة الحسنة، والترغيب والترهيب، وتقييم الواقع لمعالجته.

١٢- السر الأساسي اليوم يكمن في تمثل الإسلام واقعياً، وهذا هو الفارق الرئيسي بين العصور الأولى واليوم.

تاسعاً: الحالة المعاصرة في العالم:

١- يوجد شهية للتعرف على الإسلام، لكن مع تنفير بعض الدعاة له، ولذلك نطالب بالتجديد والترغيب، **وهذا هو سر الإسلام،** الذي يتمثل

فيه الحديث الشريف: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»، مع تقديم الإسلام كبديل.

٢- ويجب أن تكون المعركة فكرية، **بالجهاد الإعلامي** كالعهد المكي، لا قتالي، وذلك عن طريق جهاد **العلم والعلماء**.

٣- **واقع الحضارة الغربية**:

يجب الاعتراف أنها قوية، متفوقة، مبدعة، تسمو بالعقل الإنساني، وتحترم الإبداع البشري، وتترع نحو الدقة والنظام والانضباط واحترام الوقت، وتقوم على تسخير القوى الكامنة في الإنسان وفي الكون وفي الطبيعة، لتعمير الأرض، ولبناء الحياة الإنسانية التي يسعد بها بنو البشر.

لكن يعتريها **التفرقة العنصرية** في سياسة بعض الحكومات والدول في الغرب، وفيها مظاهر للانحراف **الفكري والسلوكي**، والسبب طغيان الجانب المادي والمصلحي فيها على الجانب الروحي والقيمي.

وهذا يقتضي من المسلمين الاهتمام بما يلي:

أ - تحديث **المناهج** التعليمية وتطوير النظم التربوية.

ب- دعم البحث العلمي في جميع حقول المعرفة.

ج- تجديد أساليب الحياة العامة بالإصلاح السياسي والاقتصادي وغيره نظرياً وعملياً.

٤- الحاجة لترشيد فكري وثقافي يستند إلى قيم الحضارة الإسلامية.

٥- **الدعوة في داخل العالم الإسلامي**: يجب تركيز الدعوة اليوم إلى العالم الإسلامي قبل غيره، للأفراد والدول، ليتم الالتزام بالدعوة، والتطبيق

العملي لها، وإقامة النموذج الحي للإسلام، ليكون صورة ذاتية للدعوة، ومثالاً للاحتذاء، وتجربة رائدة، لإعلان صورة الإسلام عملياً للعالم.

وهذا بحد ذاته يجيب على الأسئلة المثارة عن سبب تخلف المسلمين، وعدم نجاح الدعوة اليوم، والتناقض بين الإسلام والمسلمين، وبين الاسم والمسمى.

وهذا يواجه المرض الجسيم في تخلي الإعلام العربي الرسمي خاصة، والإعلام في سائر البلاد الإسلامية، عن حمل الدعوة الإسلامية وتبنيها والتنسيق مع الدعاة والعلماء.

عاشراً: طرح شعار تجديد الخطاب الديني:

كثيراً ما نسمع عن تجديد الخطاب الديني، والدعوة إلى الحرية، والديمقراطية، والعولمة، وتحرير المرأة، وحقوق الإنسان، ومنع سلاح الدمار الشامل، وحصر الأسلحة النووية.

– إن هذه الشعارات **للمتاجرة، والتلاعب، والتغطية على المخططات السرية**، والمطامع المادية التي تسعى إليها الدول العظمى.

– والجميع يقر ويعترف اليوم بمبدأ " **الكيل بمكيالين** " واختلاف الأمر حسب المصالح.

– **فالحرية** لا تكون بالحرب المدمرة، والجيوش والقنابل العنقودية، وتدمير الحضارة، والتاريخ، وقتل الأطفال والنساء، وتدمير المستشفيات والوزارات والمعامل والمصانع، والتحرير لا يكون بالاحتلال العسكري، وقد منحت أمريكا الحرية في العراق إلى اللصوص والمجرمين والقتلة وقطاع الطرق.

– **والديمقراطية** تضحك من المنادين بها الذين زرعوا الحكام العسكريين المستبدين، وقاموا بالانقلابات العسكرية، وما يسمى **الثورات** التي يقوم بها

الضباط، ثم تدعمهم أمريكا حتى يحققوا أغراضها، ثم تعلن الحرب ليس عليهم فحسب بل على شعوبهم ورعاياهم.

- **فالحصار الاقتصادي** الذي يفرضه مجلس الأمن والأمم المتحدة والدول الكبرى **لا يصيب الحكام** وأعوانهم ولا يؤثر على مكاسبهم، وإنما يمنحهم فرصة جديدة للتحكم بالشعب، كما أن **القتل والتشريد** لا **يصيب الحكام** وأعوانهم ومن يلوذ بهم، وإنما يقع على أفراد الشعب المغلوبين، وهذه الديمقراطية **تذبح وتقتل** تحت أقدام **عملاء أمريكا** في البلاد العربية الذين تدعمهم وتؤيدهم، وتتسر عليهم، فإن انتهى دورهم وجهت السهام إليهم، ورفعت عليهم تهمة الاستبداد والفساد والقتل والحجر، ثم تباكت على الديمقراطية، وسعت لإزاحة الحكام الذين نصبتهم ودعمتهم، لتعين فئة جديدة من العملاء.

- **العولمة**: تعني فرض ثقافة القوي، وإلغاء دور الشعوب والثقافات، فإن اصطدمت مع رغبات الكبار تخلوا عنها.

- **وحقوق الإنسان** تترف بالدماء والجروح والقتلى والشهداء على أيدي دعاة الحرية وحقوق الإنسان، وحتى استعمال القنابل العنقودية واليورانيوم المخصب. وكل أنواع البطش في حرب العراق، قالوا: إنها للضرورة وتفرضها الظروف بينما كانوا يعلنون الحرب عليها، والتشهير بها، واتهام خصومهم باقتنائها، ويعلنون الحرب لاجتثاثها، وكل إنسان في الدنيا أثناء الحرب يمر بالضرورة والظروف القاسية فلماذا ينادون بها ثم يستعملونها عند الضرورة؟

- **وأسلحة الدمار الشامل** يندد بها الغرب في العراق، وفي كوريا، ويسكت عنها لدى الدولة المغتصبة المحتلة في فلسطين، وأخيراً تعلن الولايات

المتحدة أنها وافقت على تطوير أسلحة الدمار الشامل والقنابل التي تخترق الحواجز باليورانيوم.

حادي عشر: بيان وسائل الدعوة اليوم وتقييمها:

١- الدعوة بالحكمة.

٢- الدعوة بالموعظة الحسنة.

٣- استمالة الأنفس بالترغيب والترهيب.

٤- **الجدال بالتي** هي أحسن مع التخلي عن التعصب، والتقيد بالقول الحسن، والمحاورة بالمنطق، عدم التعارض بين القول والعمل.

٥- يجب **تقييم الواقع** المعاصر للمسلمين، وهو أسوأ ما مرّ في تاريخهم، وهو أسوأ بكثير من الجاهلية المحيطة بهم، بل تبدو الجاهلية المعاصرة قمة شامخة يعيش المسلمون إلى جوارها في الحضيض، ويظهره الضعف المزري، والضياع الفكري والروحي، علماً بأن **التخلف لم يكن بالإسلام، إنما بالمسلمين**، لتخليهم عنه وتفريطهم فيه.

٦- تسليط الضوء على **التفسخ في المجتمعات المعاصرة**، وبيان عوامل ذلك، وبيان الكتل المتصارعة داخل المعسكر الجاهلي.

٧- **طرح البديل** عن أمراض الجاهلية المعاصرة، كوحدة الجنس البشري، وتعارف الشعوب، وعالمية الإسلام، والعدالة، والمساواة الحقيقية، والجمع بين الدين والدنيا، بين العقيدة والشريعة، بين الأخلاق والتشريع، وإنسانية الإنسان، والتشريع والنظام، ولقاء العقيدة والشريعة مع فطرة الإنسان.

٨- المراجعة التاريخية لمسيرة الدعوة الإسلامية، وخاصة في القرن الماضي، مع

المواجهة للشيوعية، والقومية، والإلحاد، والعلمنة، وفصل الدين عن الدولة، ومحاولة بعض الحكام في البلاد الإسلامية التصدي للرموز الإسلامية والشخصيات والشعارات الإسلامية كالحجاب واللحية، وتغيير المناهج والتضييق على التربية الإسلامية، والتدخل في الشعائر كخطب الجمعة والتدريس الديني، وتضافر الحكام في بلاد العرب والمسلمين على ذلك، وتعاونهم عليه باسم الأمن ومحاربة الإرهاب والتطرف الديني، والتضييق على العلماء والدعاة والسعي لتهجيرهم خارج بلادهم.

٩- إن سر نجاح الدعوة أو جمودها يكمن في معرفة **الفارق الرئيسي** لنجاح الدعوة في العصور الأولى وتراجعها في العصور الأخيرة، وهو تمثيل الإسلام واقعياً في الحياة العامة، والمجتمع، والأمة، والدولة والأفراد، أو المناداة به نظرياً وفكرياً، وأحياناً للمتاجرة والمباهاة، واقترن مع النجاح السابق قلة المجهود، وقلة العَدَد والعُدَد، وقلة الوسائل مع سمو الغايات، وكان العكس فيما بعد، وإن كثيراً من المسلمين الذين يسافرون للغرب للسياحة أو التعلم يعطون أسوأ صورة عن الإسلام وهم يحملون اسمه.

١٠- توجيه القسط الأوفر للدعوة إلى **داخل العالم الإسلامي**، ليس لنشر الإسلام، بل لنقل المسلمين من الإيمان النظري إلى التطبيق العملي، من الشعارات إلى الأعمال، وإقناع المتشككين، ووضع حد للمخالفين والخارجين عن السلوك الإسلامي، دون تكفير لهم، وإنما **دعوتهم للالتزام والتطبيق والسلوك**، مع وقف الهجوم الداخلي على الإسلام، وتوضيح الصورة لفئات من المجتمع، وتحويل الأحكام إلى تطبيق وممارسة.

ثاني عشر: الحركات الإسلامية الفئوية / وتطوير الخطاب الديني:

١- **الوصف:** لا يجوز أن نغمطها حقها فقد عملت في حقل ألغام، وكان الأعداء لها كثراً وكانت الخبرة والتجربة قليلة، والأخطاء كثيرة.

٢- **المطلوب: يجب المراجعة، والنقد الذاتي** التزيه البناء.

٣- الاستفادة من التجارب والخبرات الذاتية، والغيرية.

٤- توحيد الصفوف بين المذاهب والطوائف والأحزاب الإسلامية.

٥- تجنب الأخطاء **كادعاء الوصاية، والتكفير، والمعاداة** الحزبية، «كل من ليس معنا فهو ضدنا». **خلق الأعداء، والاصطدام في الداخل،** وحمل **السلاح والقتال** والجهاد الداخلي، مع **الأخطاء في السلوك،** والمجابهة مع الحكام والحكومات بما لا يجدي، والتفرق والانقسام.

◈ وأخيراً:

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وأن يأخذ بيد الدعاة إلى ما فيه خير العباد والبلاد، وأن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، وأن يجملنا بالصبر أولاً على الواقع السيئ، والمستقبل الأسود في المنظور القريب، ثم يقوي إيماننا بالمستقبل البعيد الذي وعدنا الله به، ووعد به الإسلام والمسلمين، لنردد قول الرسول ﷺ «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: التجديد في الدّين

الحمد لله الذي أتم لنا الدين، والصلاة والسلام على رسول الله الذي تركنا على المحجة البيضاء، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن التجديد في الدين مصطلح شرعي، ومطلوب شرعاً، بل واجب وفرض، وقد يستغله بعض الناس، أو يسيء فهمه، مما يقتضي البيان والشرح.

أولاً: بيان وتعريف:

الدين هو الإسلام حتماً، وهو ماارتضاه الله تعالى لنا، وجعله خاتم الأديان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والتجديد لغة: مصدر جدد يجدد، فهو مجدّد، وتجدّد الشيء: صار جديداً، وجدّده واستجده: صيّره جديداً، والتجديد في الدين يدور حول البعث، والإحياء، والإعادة وفق الأصول الشرعية المستمدة من القرآن والسنة، والتي تدعو للتجديد المحقق لثبات الشريعة الربانية وشمولها.

وتجديد الدين: هو السعي لإحيائه، وبعثه، وإعادته، كما كان زمن النبي ﷺ حفظاً وفهماً، والتزاماً، وسلوكاً، وتطبيقاً شاملاً في الحياة، وليس كما يتبادر إلى الذهن أنه التوصل إلى فكر جديد في الدين لم يكن معروفاً في عهد الرسول وصحابته وسلف الأمة، والتجديد إما أن يتم من عالم مبدع يؤازره الآخرون، أو من مجموعة تتعاون كرواد الصحوة الإسلامية المعاصرة.

ثانياً: أساس التجديد:

إن الأساس الأصيل للتجديد أن **الإسلام عالمي، وصالح لكل زمان ومكان،** لأن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ برسالة الإسلام، وجعله خاتم الأنبياء للناس جميعاً، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨، فالله تعالى أرسل محمداً ﷺ بصراحة هذه الآيات للعالمين، وللناس أجمعين، وهذا يشمل جميع الأجناس والأقوام والأمم، ويشمل جميع العصور والأزمان في العالم، وهو ما أكده رسول الله ﷺ بقوله: «فضلت على الأنبياء بست» وفي رواية «وأعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي...،... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد والدارمي، ووضحه رسول الله ﷺ أكثر من ذلك، فقال: «إن الله تعالى زوى لي الأرض» أو قال: «إن ربي زوى لي الأرض (جمعها)، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ مازوى لي منها» رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد.

وفي الوقت ذاته بلّغ رسول الله ﷺ الرسالة وأدّى الأمانة حتى لحق بالرفيق الأعلى، وقال: «تركتكم على محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاهالك» رواه ابن ماجه وأحمد، وقال أيضاً في حديث طويل: «تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله» رواه مسلم وأبو داود، وروى حذيفة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ قائماً، فما ترك شيئاً في

مقامه ذلك إلى يوم القيامة إلا حدّثه...» الحديث رواه أبو داود، فالدين كامل وباق إلى قيام الساعة، وسيقوم عليه أهله وحفظته، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال» رواه مسلم وأبو داود، فالدين محفوظ إلى يوم الدين، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ولا يتم ذلك بمجرد الأهواء والآمال، ولا بدّ من عمل وعلم، ولا بد له من دعاة وعلماء، ومصلحين، ومجددين.

ثالثاً: أسباب التجديد ودواعيه:

إن حفظ الدين، وبقاء الإسلام، لايعني أن الأمور تبقى على ماهي عليه، ولكن قد تتغير وتتبدل، وتعتريها الأحداث، فمن ذلك:

١- **أن يلحق بالدين ماليس منه**، ويتسرب إليه أحكام وعادات طارئة، وتبعث مع مرور الزمن تقاليد موروثة وبالية، وتطفو جاهلية جديدة، وكثير منها مخالف للدين وجوهره، ولكنها تنتشر بين الناس، وتسود في المجتمع والحياة، والأخطر من كل ذلك أن تنسب إلى الدّين أو تعدّ من حقيقته وأحكامه، وتلبس لبوسه، وهي مجرد أوهام وانحراف، وبعضها ضلال وكفر.

٢- **كثيراً ماينسى الناس بعض الأحكام الشرعية**، ويغفلون عن تطبيقها، وتغيب عن حياة المسلمين، حتى يتنكر لها بعضهم جهلاً أو بحسن نية، وتصبح في حيز الضياع، وهذا مايسود عند بعض الناس اليوم، وكأن الدين محصور بالمساجد، أو بالعبادات.

٣- **إن الأمم والمجتمعات في لقاء**، وتبادل للمعارف، وقد يتسرب للمسلمين أحكام من الآخرين، وقد تفرض عليهم أحكام أجنبية، وتطبق في الحياة حتى يظن بعضهم أنها من مستلزمات الحياة، وأنها واجبة التطبيق، وأن الالتزام بها ضروري، ويكون ذلك على حساب الأحكام الشرعية التي تطوى وتنسى، بل تحارب وتستهجن، حتى يصبح الدين بين أهله **غريباً**، ويصبح الشرع أو بعضه **معطلاً**.

٤- **الجمود الفكري** الذي قد يصيب الأمة، كما حصل في أحقاب متعددة، وأدى إلى غلق باب الاجتهاد لعدم وجود المؤهلين له، ونتج عنه تراكم مئات وآلاف المسائل والقضايا التي لم تجد حكماً شرعياً من العلماء والفقهاء.

٥- **الضعف والهزال اللذين** أصابا الأمة، مع الهزائم التي نزلت بها في التاريخ، وأدت لاحتلال البلاد الإسلامية كالغزو الصليبي والتتري، والمغولي، ثم الاستعمار الحديث، ونتج عنه **غياب التطبيق للشريعة**، وفرض الأنظمة والقوانين الأجنبية الاستعمارية التي سادت في الحياة والمجتمع، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم، وتغيبت **سيادة الشرع**، مما يستدعي نهضة كاملة لتجديد الدين **والعودة إلى أحكامه وشرعه**.

رابعاً: مشروعية التجديد في الدين:

إن الأسباب السابقة، وغيرها كثير، توجب على علماء الأمة، والمخلصين فيها، والدعاة، والمفكرين، والمصلحين أن يؤدوا واجبهم، ويقوموا بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم، في بيان الدين الحق، والعودة بالناس إلى شريعة ربهم، لتعود بيضاء نقية.

وهذا **ماطلبه رسول الله** ﷺ بصيغة الإخبار المفيد للوجوب والفرض، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود.

وهو مارغب به رسول الله ﷺ فقال: «**من أحيى سنة** من سنتي، فعمل بها الناس، كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً» رواه ابن ماجه، وهو حديث صحيح، وفي رواية «من أحيى سنة من سنتي **قد أميتت بعدي** فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، ورواه ابن ماجه.

فالأحكام قد تغيب وتنسى، والسنة قد تموت، مما يوجب على أهل العلم والدين أن يذكّروا عند النسيان، وأن يحيوا مامات، وهو واجب الدعاة والعلماء والمفكرين والمجدّدين.

بالإضافة إلى العديد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي **تحث على التبليغ**، وأداء الأمانة، ونشر الإسلام، وتعليم الناس أمور دينهم، وتحذرهم من التقصير والإهمال، وتدعوهم إلى **التزام دينهم وشريعتهم**، لتبقى أحكام الشريعة نافذة ومهيمنة على جميع الناس، وتغطي النشاط الإنساني، وتضع الحلول الإسلامية لكل واقعة، وتبين الحكم الشرعي لكل طارىء بما يحقق مقاصد الشريعة وكلياتها، وتنمية جوانبها، وتفعيل مكملاتها، وتمييز ما هو من الشريعة، ومايلتبس بها، وكشف الدخيل عليها، وتنقية ماعلق بها، وماتسرب إليها، ومانسب إليها زوراً، وماتراكم عليها من عوادي الزمن، وتقلبات الدهر.

يقول أحد الباحثين: «إن التجديد في التصور الإسلامي من **المسائل الشرعية المعتبرة** له ضوابطه، ومجالاته، وهو خصوصية من خصائص بقاء

الدين واستمراره وخلود أحكامه، فتجديد الدين ليس حركة طارئة على الإسلام، بل هو **مكرمة** أقامها الله تعالى لهذه الأمة، وعامل من عوامل الحراسة لدين الله وشرعه».

خامساً: صور التجديد ومظاهره:

إن تجديد الدين، وإحياء مامات منه، والعمل على تعليمه وتطبيقه يأخذ صوراً كثيرة، ويتجلى في مظاهر عدة، أهمها:

١- **العمل على حفظ نصوص القرآن الكريم، والسنة الصحيحة**، نقية أصيلة، لتبقى منارة في الحياة أمام الجميع، ونوراً يستضيء به العلماء والمجتهدون لإضافة كل نافع عند توسع مفهوم النصوص، وتغطيتها لمعاش الناس.

٢- **التجديد في العلوم الشرعية** شكلاً ومضموناً بما يتناسب مع العصر، والوقائع، والأحداث، والتطورات، والتقنيات، والوسائل التعليمية، واستبعاد مالا يحتاجه الناس اليوم كأحكام الرق والعتق، ومعظم أحكام الدواب، وإيجاد الأحكام لما طرأ كأحكام السيارات والطائرات والبناء والعمران، والإعلام في المذياع والتلفاز، والفضائيات، والأقمار الصناعية، والوسائل الإلكترونية، والاتصالات السلكية واللاسلكية، وربط الفروع بالأصول، وإلحاقها بالقواعد الفقهية، وبيان الفروق، ورفع مظلة مقاصد الشريعة في الأصول والفروع، والاستفادة من وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة.

وإن ظاهرة التجديد في العلوم الشرعية **ضرورة شرعية، وفريضة عقلية**، لأنها خدمة للدين، وحماية لحياضه، حتى يصل هذا التجديد لعلم أصول الفقه نفسه بما يغذي عقول المجتهدين بطرائق النظر والاستنباط من النصوص الشرعية، وتجديد بعض مصادره كالإجماع، واستبداله بالاجتهاد الجماعي،

وترك ما لحق به من مسائل نظرية ومنطقية وكلامية، وربط قواعد الأصول بالفروع التطبيقية المعاصرة، ومواجهة مشكلات الحياة، حتى يعود هذا العلم إلى حيز التنفيذ العملي له.

٣- **إحياء ما اندرس من السنة،** كما أشار إليه الحديث الشريف، وإعادة الحياة للمفاهيم الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة، وتمييزها عما اندس أو تسرب إليها من الأديان الأخرى، والشرائع الغازية، والقوانين المستوردة، ومافرضه الغزو الفكري على المسلمين.

٤- **بيان الأحكام لما يستجد في الحياة،** ومتابعة كل التطورات والمبتكرات والطوارىء، لإعطاء الحكم الشرعي لكل منها بما يتفق مع الشريعة الغراء، ليتبناها المسلم في التطبيق، وذلك بالإضافة المستمرة لما يكمل البنيان القائم، لربط الفقه بالواقع والحياة، والعلوم المعاصرة، والتقنيات، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية، والتخلي عن الأمثلة التاريخية والخيالية مما لا وجود لها الآن، والاكتفاء في العبادات بما بذله السابقون.

والتخفيف من المسائل التي لا وجود لها في عصرنا، واستبداله بما يعيشه الناس كالاقتصاد والمصارف والشركات الجديدة والعلاقات الدولية.

٥- **التجديد في الصياغة والأسلوب** لما كتبه الآباء والأجداد في كتب التراث، بأسلوب سهل معاصر يتفق مع روح العصر، وقدرات الطلبة، وثقافة الجيل، ومن هنا ظهرت كتب الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد، أو ثوبه الجديد، لاستخدام اللغة الميسرة التي يفهمها المتخصص وغيره

٦- **الاعتماد على المجامع الفقهية** في بيان الأحكام للمسائل الجديدة الكبيرة

والمهمة، مثل الاقتصاد الإسلامي، والمصارف، والتأمين، والعمليات الطبية الحديثة، ووسائل الإعلام، والتربية، والعلاقات الدولية.

٧- **تبني الدراسات المقارنة بين المذاهب**، للتخفيف من المذهبية، وللتخلص من التعصب المذهبي، وفتح المجال أمام لجان التشريع للاستفادة من الفقه الإسلامي بأوسع أبوابه، مع التدليل الشرعي والعقلي، وخاصة عند المقارنة مع الأنظمة والقوانين والتشريعات الوضعية **فالعقل الصريح يوافق النقل الصحيح**، ويتحقق بذلك البرهان والاستدلال على صحة ماجاءت به الشريعة، وعمق نظرها، وذلك لتوطئة **التقنين من الفقه الإسلامي** وإخراجه بشكل أنظمة وقوانين يصدرها ولي الأمر والجهات المختصة لتكون شرعاً ملزماً يرعاه القضاء في التطبيق والتنفيذ.

٨- **تحويل المقادير الشرعية** في المكيلات والموزونات، والمسافات، والنقود إلى مقادير معاصرة، يفهمها الناس من جهة، وهي المطبقة عملياً في الحياة من جهة ثانية.

٩- **بيان الحكمة التشريعية للأحكام**، لأنها تقربها من الفهم، وتمنحها تأثيراً على الاقتناع، واطمئنان القلب، لأنه ما من حكم شرعي إلا وجاء لتحقيق مصالح الإنسان، إما بجلب النفع والخير له، وإما لدفع الشر والضرر عنه، وإما للأمرين معاً، حتى ولو لم ندرك ذلك لقصور العلم وكشف الحقائق، فتأتي الاختراعات والتقدم العلمي في المستقبل ليؤكد صحتها، وهو ما أكده العلم الحديث، والتحليل، والمختبرات لعدد من المسائل والأحكام التي كان المسلم يسلم بها تسليماً، ويفوض الأمر فيها لعلم الله تعالى وحكمته وتقديره.

١٠- **الاستفادة من منهج الموسوعات،** في بيان الأحكام الشرعية، وهو ماحصل في الموسوعة الفقهية، ثم في القواعد الفقهية عن طريق «معلمة القواعد الفقهية» التي تبذل الجهود الحثيثة اليوم لإخراجها.

سادساً: منهج التجديد وضوابطه:

إن كل عمل نافع، وكل سعي واجتهاد، لابد له من **منهج محدد، وضوابط** يسير عليها، حتى يؤتي ثماره، ولا يحيد عن هدفه وغايته، وإلا انحرف، أو ضل الطريق، وفقد مقومات وجوده، وقد يؤدي إلى عكس المقصود، وهذا المنهج والضوابط كثيرة، ومنها:

١- **أن يلتزم التجديد بالمناهج العلمية المنضبطة،** والمحددة لفهم نصوص الوحي الرباني، واستخراج الأحكام الشرعية منه، وتنحصر هذه المناهج بقواعد علم أصول الفقه الإسلامي الذي اخترعه المسلمون، ودوّنه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، وسار عليه سلف الأمة وخلفها طوال العصور، فحفظ الدين، ورد كيد الأعداء، فحصر مصادر التشريع، وتفسير النصوص الشرعية من قبل العلماء والمجتهدين، وإزالة التعارض الظاهري في النصوص والأحكام، وتحديد الراجح منها بما يتفق مع مقاصد الشريعة.

٢- **العودة بالدين والأحكام إلى ماكانت عليه** عند سلف الأمة، وأيام عزها وحضارتها وشموخها، وسيادتها، فإنه لا يصلح هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها.

٣- **الالتزام عند التجديد بالأحكام الشرعية القطعية الثابتة،** وعدم مخالفة الشريعة ومقاصدها العامة.

٤- **الوسطية والاعتدال في الاجتهاد،** والاستنباط، والاستدلال، وفهم

النصوص، واستخراج الأحكام، ومراعاة روح الشريعة، واستظهار مقاصد الشريعة في كل صغيرة وكبيرة.

٥- **الوقوف عند المسائل الواقعية**، وخاصة الأمور الجديدة، والمستجدات، والمسائل الطارئة، والبعد عن القضايا النظرية المحضة، والفرضية، والخيالية، والتاريخية المنقرضة، ومراعاة مايجري في العالم من أنظمة وقضايا، ولقاءات واختلافات، لتكون تحت الأنظار، والتجاوب معها بأخذ الصالح، ونبذ الفاسد، ومعالجة الانحراف والشذوذ، ومواجهة التيارات الوافدة.

٦- **مراعاة ماوصل إليه التقدم العلمي** في مجالاته المختلفة في الطب والتحليل، والهندسة والعمران، والتعليم، والاتصالات، والإعلام، والاقتصاد، والمحاسبة، والصيدلة، واللسانيات، والفلك، والتقنين والتشريع، والتنظيم والإدارة، وغيرها.

٧- **الجمع بين الأصالة والمعاصرة**، الأصالة بما فيها من نصوص شرعية ثابتة، وتراث للأمة في مذاهبها وعطائها وإنتاجها، لاختيار ماينا سب من أقوال السلف، واحترام نتاجهم، والمعاصرة بما فيها من ابتكارات وأجهزة وفكر واستفادة مما يقدمه العقل البشري من تقدم ورقي وعلم وأساليب تربوية ومنهجية وفكرية وحضارية وثقافية وتقنية.

والموضوع يستحق تفصيلاً ودراسة وتوسعاً في ظروف مناسبة، والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: الدين النصيحة

اهتم الإسلام بتربية الأفراد جسمياً وروحياً، وعقلياً ونفسياً، وأولاهم رعاية عظيمة، واتجه إليهم بالإعداد والتوجيه على أسس قويمة، ومبادئ سليمة، منطلقاً من واقع الفرد وفطرته، ليسمو به نحو الكمال، لأنه مقصود لذاته، وهو محور التربية، وهدف التشريع، ولأنه الخليفة المستخلف في الأرض، والمفضل في الكون، والسيد المميز على بقية المخلوقات.

ولكن هذه التربية لا تتجه نحو الأنانية والفردية التي تجتثه من المجتمع، وتضر به وبمن حوله، وإنما تتولاه بالرعاية، ليكون لبنة صالحة في المجتمع، يضع يده في يد الآخرين، ويضم جهوده للتعاون معهم، والتناصر بهم، والاندماج فيهم، لأن الإنسان ضعيف لوحده، ويتقوى بأخيه الإنسان، ولأن **اهتمام الإسلام بالمجتمع والأمة** لا يقل شأناً عن اهتمامه بالفرد والإنسان، فالإنسان اجتماعي بطبعه، ولأن أثر المجتمع على الفرد كبير وخطير، سلباً وإيجاباً، والتأثير المتبادل بينهما حتمي، فالفرد يعطي المجتمع، ثم يأخذ منه الكثير، والمجتمع يقدم للفرد ويطلب منه البديل والمقابل، وكلما كانت العلاقة بينهما وطيدة وسليمة تحقق الخير والنفع لهما معاً، والعكس بالعكس، ولذلك اتجه الإسلام إلى إقامة الروابط الصحيحة بين الأفراد لبناء المجتمع السليم، مع بناء الجسور بينهم، وترسيخ التعاون الكامل على أحسن الوجوه، وجاءت الآيات الكثيرة، والأحاديث الشريفة، والأحكام التشريعية، لإنشاء المقومات التي يبنى عليها المجتمع الإسلامي، ومن ذلك حديث مشهور وصحيح، واضح المعنى، قليل الكلمات، جلي المقصد، عميق الأثر، واسع المضمون، ويعتبر في نفس الوقت حكمة نبوية، وموعظة إلهية، وشعاراً إسلامياً، وقاعدة دينية، ويحدد

العلاقة في المجتمع بين الأفراد بعضهم ببعض، وبين الأفراد ومن يتولى أمورهم.

روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والإمام أحمد والدارمي عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «الدِّينُ النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابِهِ، ولرسولِه، ولأئمة المسلمين، وعامَّتِهم» وهذا لفظ مسلم، وفي رواية أبي داود: «إنَّ الدِّين النصيحةُ، إنَّ الدِّين النصيحةُ، إنَّ الدِّين النصيحةُ...».

قال النووي رحمه الله تعالى: «هذا حديث عظيم الشأن، وعليه مدار الإسلام» وقال: «عماد الدين وقوامه: النصيحة» وقال الخطابي رحمه الله تعالى: «النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له، ويقال: هو من وجيز الأسماء، ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة»، وتطلق «النصيحة» ويراد بها إرادة الخير للمنصوح له.

◈ شمول النصيحة:

يظهر من الحديث وجوب التناصح بين المسلمين في جميع الجوانب الدينية والدنيوية، ففي الأمور الدينية يجب النصح لله، ولكتابه، ولرسوله، وفي الأمور الدنيوية يجب النصح لأئمة المسلمين وعامتهم، مما يشمل جميع أفراد المجتمع، وهو ما نفصله فقرة فقرة.

١- النصيحة لله تعالى:

وهي من نصيحة العبد لنفسه فيما يتعلق بربه، وذلك بالإيمان به إيماناً مطلقاً، مع توحيده في الألوهية والربوبية، وأن ينفي عنه الشرك والشريك، وأن يقر بصفاته تعالى، وأن يعتقد به جميع صفات الكمال، وأن يترهه عن جميع صفات النقائص، وأن يقوم بطاعته، واجتناب معاصيه، مع التوجه إليه،

والثقة به، والأمل فيما عنده، والاعتماد عليه، فهو الخالق الرازق، اللطيف الخبير، الرحمن الرحيم، أقرب إلى العبد من حبل الوريد، إذا دعاه المرء أجابه، وإن قصده لبّاه، وإن التجأ إليه حماه، وإن استعاذ به أعاذه، وإن استغاثه أغاثه، وإن استعان به نصره وأعانه على غيره، ولذلك يستحق العبادة الكاملة، والشكر على آلائه ونعمه، والإخلاص في العمل إليه وحده، والمحبة الصافية من القلب، والتذكر الدائم، مع الذكر المستمر، ثم تعميم هذه النصيحة للناس أجمعين.

٢- النصيحة لكتاب الله تعالى:

وهو القرآن الكريم، وكتاب الله المبين، وحبل الله المتين، ونور الله المستبين، ومائدة الله في أرضه، أنزله الله للناس هداية ورحمة، وضياءً ونوراً، ودستور حياة للفرد والأمة، يهدي الناس للتي هي أقوم، ويأخذ بقارئه إلى السعادة الأبدية، والنعيم الخالد ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

والنصيحة لكتاب الله تعالى أن نؤمن بأنه كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، باللفظ العربي، المعجز للإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأن نقوم برعايته حق الرعاية، وتلاوته حق تلاوة، وأن نتدبر آياته، وأن نعمل بأحكامه، وأن نتعظ بأخباره وقصصه، وحِكمه، وأمثاله، وأن نتفكر بعجائبه، وما ورد فيه من ترغيب وترهيب، وتربية وتهذيب، وأن نقوم بحفظه وتعلمه وتعليمه ونشره، وأن نحتكِم إليه، ونرجع إلى قضائه، وأن يكون قرينَ المؤمن في كل وقت، وأنيسَه في كل حين، ورفيقه في حله وترحاله، ومَحَطَّ نظره وتفكيره، وأن ندفع عنه تأويل المحرفين، ونرد تعرض الطاغين، ونعلن التمسك به دستوراً، والسير على هداه حتى يوم الدين.

٣- النصيحة لرسول الله ﷺ:

وهو نبي الرحمة المهداة، الذي أرسله الله للناس هادياً ونصيراً، وبشيراً ونذيراً، ورحمة للعالمين، ومنقذاً لهم من الضلال والغواية، والانحراف والرذيلة، والتيه والضياع، ومن شياطين الإنس والجن، واصطفاه على غيره، وأكمله بالخُلُق العظيم، ووصفه ربُّه بالرؤوف الرحيم، وآتاه الحكمة، واختصه بالعصمة والشفاعة الكبرى، وأنزل عليه الوحي، وأمره بالتبليغ، فأدى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وأزال الغُمّة، وجاهد في الله حق جهاده، ثم لحق بالرفيق الأعلى.

والنصيحة لرسول الله ﷺ بتصديقه بالنبوة والرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به من عند الله تعالى، والسير على سيرته العطرة، والتخلق بأخلاقه الفاضلة، والاقتداء بسلوكه القويم، والتزام الأدب معه، والمحبة له، وحسن الاتباع له، وأن نأخذ بسنته الشريفة، علماً وعملاً، وأن نحيي ذكراه، وننصره في دينه، ونرجع إليه، ونرضى بقضائه وأحكامه، ونختار لأنفسنا ما اختاره لنا، وأن نزورَ قبرَه، ونكثر من الصلاة والسلام عليه، وأن ننصر دينه وشريعته، ونحبَّ أصحابه، وندعو إلى سنته، ونذبَّ الشبه عنها، وأن نلقي بالافتراءات والدسّ في وجه أصحابها، وأن نسأل الله تعالى له الوسيلة والشفاعة، وندعو أن يحشرنا الله تعالى تحت لوائه يوم الدين.

٤- النصيحة لأئمة المسلمين:

أئمة المسلمين صنفان، الأول: يشمل الحكام والخلفاء، والولاة والأمراء، والقادة وجميع الرعاة الذين تولوا رئاسة الأمة، وريادة الناس، في تطبيق الشرع الحنيف، وتحملوا المسؤولية عن غيرهم، فصارت أمانة في أعناقهم، وهذا

الصنف بعض أفراد المسلمين، ويتعرضون للخطأ أكثر من غيرهم، ويحتاجون للعون والنصح والإرشاد زيادة على آحاد الأمة، حتى يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم، ويقوموا بوظيفتهم، ويحققوا المصلحة العامة.

ويجب على كل مسلم أن يقدم لهم العون والمساعدة على الحق، وأن يمنحهم التوجيه والبيان، وأن يمدَّ لهم يده بالمعاونة على الحق في مرضاة الله تعالى، وتطبيق شرعه، وتنفيذ أوامره وأحكامه، وألا يبخل عليهم بالمشورة وبيان الصواب، وأن يلتزم طاعتهم ما أطاعوا الله ورسوله، وأن يُذَكِّرهم برفق ولطف، وأن يعلِّمهم بما غفلوا عنه من واجبات، وأن يسدَّدَ خُطاهم، ويصحح مسارهم، ويصلح أخطاءهم بالحكمة واللين، وألا يخدعهم أو يخونهم بالثناء الكاذب، و المجاملة على الباطل، و المساعدة على الظلم، والمشاركة بالمحرمات إذا وقعت منهم، ويشمل النصح لأئمة المسلمين الدعاء لهم بالصلاح والإصلاح، والسداد والتوفيق في رعاية الأمة، والالتزام بدينها، والعمل بكتاب الله، والأخذ بسنة رسول الله ﷺ، والنصر على الأعداء، والاعتصام بحبل الله وشرعه.

الصنف الثاني من أئمة المسلمين هم العلماء و الفقهاء والدعاة، حملة الدعوة والرسالة، ورثة الأنبياء، الذين يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويحملون مشعل الرسالة والعلم ليبلغوها للناس، ومعنى النصيحة لهم أن نأخذ عنهم الدِّين والأحكام، وأن نتعلم منهم، وأن نحسن الظن بهم، وأن نقدم لهم الطاعة والامتثال، والاحترام والإجلال، للوقوف خلفهم، وتأييدهم في الدعوة والعمل.

وهذان الصنفان يدخلان في الآية الكريمة بإطاعة «أولي الأمر» في قوله

تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، وهما الصنفان المعنيان في الحديث الشريف «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، العلماء والأمراء».

٥- النصيحة لعامة المسلمين:

وهم سائر المسلمين، مهما اختلفت صفاتهم وأحوالهم، ومهما تعددت أجناسهم ولغاتهم، ومهما تنوعت أماكنهم وأعمالهم، فالمسلم أخو المسلم، و﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ و«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً» و«إن أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى منه أذى فليُمطْه عنه»، و«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» و«الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

ومن حق الأخ على أخيه، والمؤمن على المؤمن، أن ينصحه لكل خير، وأن يرشده لكل ما فيه مصلحة أو منفعة، في الدنيا والآخرة، وأن يدفع عنه المفاسد، ويكف عنه الأذى، ويصحح له الخطأ، ويعفو عن خَطئِه وتقصيره، ويستر عيبه، ويحبَّ له ما يحب لنفسه، وأن يساعد ويقدم له المعونة، وأن يرشده إلى البر والتقوى، ويحذّره من الإثم والعدوان، وأن ينبهه إلى مآخذه وعيوبه ليتجنبها، ويكشف له الخير ليستزيد منه، وأن يرفق به، ويحافظ على سرّه، ويقضي حوائجه، ويدعو له، ويشدّ أزره، ويشاركه في الأفراح، ويواسيه في الأحزان، وأن يأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، ويعامله بالإحسان والرحمة ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ ويمتنع عن غشه أو الاعتداء عليه، أو الإضرار به، أو التطلع إلى ماله وعرضه، ويزهد بما في يده لكسب محبته، إلى غير ذلك من الحقوق والواجبات التي أرشد إليها الدِّين الحنيف، لينصح به المسلم عامة المسلمين.

◈ حكم النصيحة:

وهذه النصيحة في الدين قسمان، **الأول: نصيحة المرء لنفسه** التي تعود على العبد ذاته، وهي النصيحة لله ولكتابه ولرسوله، و**الثاني: نصيحة المرء لغيره** من أفراد المجتمع، ولا تخص المسلم، بل تشمل المسلم وغيره، والتقييد «بعامة المسلمين» للتغليب.

والنصيحة فرض كفاية، تتعلق بكل المكلفين، وقد جعلها الإسلام مسؤولية مشتركة على الأمة، أفراداً وجماعات، رعاةً ورعية، كباراً ويافعين، علماء وغير علماء، لأن الخطاب موجه لكل مكلف، فالقادر عليها يقوم بنفسه بها، وغير القادر يحثّ غيره على القيام بها، ومتى قام بها بعض المكلفين، وتحقق الفعل المطلوب فقد برئت ذمة الجميع، وسقط التكليف عن الباقين، وإن لم يؤدها أحد أثم الكل، للتقصير وترك الواجب، لأن القادر لم يؤده، وغير القادر لم يحثّ عليه، وبذلك تتحقق صورة **التضامن الكامل في المجتمع المسلم**، وتتوفر فيه المحبة والرعاية، والتعاون والتكافل، والتوقير والاحترام والرحمة، كما وصفه الرسول ﷺ فقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسدِ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

◈ المبايعة على النصح:

ونظراً لأهمية هذا الحكم الشرعي، وأثره العظيم في صلاح الأمة، وإصلاح المجتمع، كان رسول الله ﷺ يقرنه مع أركان الإسلام، ويجعله من القضايا الرئيسية التي تتم عليها البيعة بين المسلمين جميعاً وبَيْن الرسول ﷺ أولاً، وبين بقية الحكام والأمراء والخلفاء مع عامة المسلمين ثانياً، فعن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر

واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرةٍ علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله- إلا أن تَرَوا كفراً بَوَاحاً، عندكم من الله تعالى برهان- وعلى أن **نقول بالحقّ** أينما كنّا، لا نخاف في الله لومةَ لائم» رواه البخاري ومسلم.

وروى البخاري عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله، أبايعك على الإسلام، فشرط علي: و**النصح لكل مسلم**، فبايعته على هذا» وروى مسلم عن جرير قال: «بايعت النبي ﷺ على السمع والطاعة، فلقنني: فيما استطعتَ، **والنصح لكل مسلمٍ**»، وروى البخاري ومسلم عن جرير قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاةِ، و**النصحِ لكل مسلم**».

وهكذا قرن رسول الله ﷺ بين الصلاة التي هي عماد الدين، مع الزكاةِ والنُصْح لكل مسلم، ولذلك كانت النصيحة عماد الدين وقِوامه، وأن النصيحة تسمى ديناً وإسلاماً، كما جاء في حديث تميم الداري السابق، وأن الرسول ﷺ يأخذ العهدَ على التزامه، ويبايع الصحابة والمسلمين على ذلك، بل كانت وظيفة الأنبياء والرسل النصح لأمتهم.

◈ آداب النصيحة وشروطها:

ولابدَّ للناصح أن تتوفر فيه بعض الشروط، وأن يتحلى ببعض الآداب والصفات، فمن ذلك: **الإخلاص** في النصيحة، بأن تكون لوجه الله تعالى، وابتغاء مرضاته، والسعي في تطبيق أوامره، واجتناب نواهيه، وأن يكون **الناصح صادقاً** في قوله ونصحه مع غيره، دون مخاتلة أو اعوجاج أو غش أو سوء نية أو خبث طوية، وأن يعلم الناصح أو يغلب على ظنه أن **المنصوح يقبلُ النصيحة**، ويطيعُ الناصح، ويحترم رأيه، أو يقبلُ تذكيره، فإن قبل النصيحةَ وأخذَ بها فقد تحققت الغايةُ، وإلا فقد قام الناصحُ بواجبه كما قال

تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، والنصيحة لازمة على من **قدر عليها، وأمن على نفسه المكروه**، فإن خشي الأذى فهو في سعة ورخصة، ويشترط في الناصح أن يكون **مطبقاً** لمقتضى النصيحة، وآخذاً بها في خاصية نفسه، وعاملاً فيها، كما يشترط أن تكون النصيحة **سراً** بين الناصح والمنصوح، وإلا كانت فضيحة، وتشهيراً، وقد ينقلب الأمر فيها رأساً على عقب، وتكون قدحاً وذماً يدفع الآخر إلى الإيذاء والانتقام، وقد تأخذه العزة بالإثم، وقد تدفعه نفسه للثأر أو الإصرار على المنكر والظلم، وأخيراً يشترط في النصيحة أن تكون **بالحكمة والموعظة الحسنة**، وأن يُراعي الناصح مشاعر الآخرين، ويقدر ظروفهم الخاصة، ومكانتهم الأدبية والعلمية والاجتماعية، وأن تكون بالقول اللين، والأسلوب البليغ، والطريقة الهادئة، فقد أمر الله موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بذلك في دعوة فرعون، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

◈ حكمة النصيحة:

شرع الإسلام النصيحة، وبوأها هذه المكانة العالية، لما يترتب عليها من آثار، وما تحقق من نتائج مفيدة، وما لها من حكمة رشيدة يمكن تلخيصها **بالسعي نحو المجتمع الفاضل**، وتحديد العلاقة بين أفراده بالنصح والمشورة، والتعاون على البرّ والتقوى، والابتعاد عن الإثم والعدوان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تكون العلاقة بين الرعية والمسؤولين قائمة على الصدق والصراحة، والوضوح والإخلاص، والأمانة والاستقامة، وأن تتم هذه النواحي بالمكاشفة الأخوية، والمصارحة في التعامل، والنقد البنّاء، ليسد كل منهم النقص

الذي يصدر من أخيه، ويصلح الخلل والخطأ، ويقوّم الاعوجاج، ويتجنب الأفراد والمجتمع العثار والزلل، وتخف المآسي والانحرافات، ويُرفع الظلمُ والظلمات، بحسب المبدأ الإسلامي الثابت في السنة النبوية: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إن كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً، كيف أنصره؟ قال: «تحجزه -أو تمنعه- من الظلم، فإن ذلك نصره».

وبين رسول الله ﷺ **أهمية النصيحة إذا كانت لحاكم**، كمنعه من الظلم، أو رده إلى الحق، أو تذكيره بالعدل، بأن يقول له الناصح كلمة الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، كما جاء في الحديث السابق، وأن هذا الفعل من أفضل أنواع الجهاد، ولصاحبه أجر المجاهد في سبيل الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «أفضلُ الجهادِ كلمة حقّ عندَ سلطانٍ جائر».

وعن طريق النصح والتناصح، والتعاون والتشاور، يسلم المجتمع والأفراد من مسايرة الأهواء، ومجاراة الرغبات والميول، والانزلاق أمام الشهوات والغرائز، وتقل فيه الأخلاق الفاسدة، والانحرافات الشائنة، والأخطاء العفوية والمتعمدة، ويسود في المجتمع الصفاء والوئام، وينتصر الحق على الشر، ويتقدم الصلاح على الفساد، ويرتقي المجتمع في سلم الفضيلة والفلاح، كما يريده الإسلام ويدعو إليه، وهو ما سعى له الأنبياء، ودعا إليه المصلحون، وقام من أجله الرسول ﷺ قولاً وعملاً، وتبعه الصحابة والخلفاء، وانتهجه الأئمة والدعاة، محققين قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتاريخنا القديم والحديث مليء بالأمثلة الرائدة، والنماذج الفريدة، لمن يريد العبرة والعظة. والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: التواصي بالحق

الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للأنام، وبعد:

فقد أمرنا الله تعالى بأوامر عدة، تحقق لنا النفع والخير والمصلحة للإنسان، ومن ذلك الأمر **بالتواصي بالحق** بنص القران الكريم الصريح والمباشر.

والتواصي: على وزن تفاعل، وهو يقتضي المشاركة من طرفين، أي أن يوصي كل واحد منهما الآخر، لحاجته للوصية والإرشاد والتنبيه.

بينما وردت كلمة «وصّى» و«يوصي» في كتاب الله، عندما تكون من طرف واحد، أو من جهة واحدة، فجاءت الوصية من الله تعالى لعباده في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ [العنكبوت: ٨].

كما جاءت كلمة «وصى» من طرف واحد على لسان الأنبياء لبنيهم وأقوامهم، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢].

أما كلمة «التواصي» في القران الكريم فقد وردت وصفا للمؤمنين، أربع مرات لترغيب الناس، وحثهم على فعلها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ

لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. وجاءت مرة واحدة تعقيبا على الكافرين الذين يتعاونون على الإثم والعدوان ويقفون في وجه الأنبياء، ويتهمونهم بالسحر والجنون، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذريات: ٥٢-٥٣].

ونقف عند قوله الله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ التي وردت في سورة العصر القصيرة التي قال عنها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «إن الناس أكثرهم في غفلة عنها» وقال: «لو نزلت هذه السورة وحدها من السماء على الناس لكفتهم».

والحق هو الأمر الثابت، أو هو الأمر المطابق للواقع، والحق صفة من صفات الله تعالى، والحق هو كل ما أنزله الله تعالى، ودعا إليه الإسلام، وحث عليه الدين، وهو كل ما فيه خير ونفع ومنفعة ومصلحة للإنسان، وأثبته الله تعالى، وهو مقابل الباطل والفساد والشر.

والإنسان يعتريه النقص والخطأ و النسيان والغفلة، ولذلك يحتاج إلى الوصية من أخيه الإنسان، ليقدم له بدوره الوصية بالحق،لأن المؤمن مرآة أخيه، وبذلك يتحقق الخير والبر، وتصفو النفوس، وتتآلف القلوب على منهج الله القويم، ويصلح الحال بينهم، ويكونون صفاً واحداً في السلم والحرب، كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

ويدخل **التواصي الحق** في النصح والتناصح الذي أكده رسول الله ﷺ

فيما رواه مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «الدِّين النصيحة» قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» (صحيح مسلم بشرح النووي ٢/٢٦ رقم ٥٥).

وهكذا يجب التناصح على المسلمين، فكل مسلم ينصح أخاه المسلم لما فيه المصلحة والمنفعة، والتزام الشرع، والتحذير من المخالفة والمعاصي، ليلتزم المؤمن صراط الله المستقيم، كما وصفه الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا المبدأ «التواصي بالحق» من أحوج ما يكون إليه الناس اليوم في جميع مجالات الحياة، وعلى مختلف الأصعدة، ليحظوا برضوان الله تعالى في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

خامساً: النهي عن المنكر

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ويحاول **بعض المسلمين أن يفسروا الشطر الأول** من الآية بحسب رأيهم وهواهم، وهو أن أمة المسلمين التي خاطبها الله تعالى هي خير الأمم، وأنها مفضلة على غيرها.

وهذا **تفسير خطأ، وغير صحيح**، لدليلين:

الأول: أن هذا الكلام دعوة للعنصرية، وأن الله اختار أمة المسلمين ليكونوا خير الأمم، وهذا يشبه قول اليهود عن أنفسهم: إنهم شعب الله المختار، وقول الألمان: إن الجرمان أرقى الشعوب والأجناس، علماً بأن ذلك يتناقض **عن التصور** الإسلامي عن الله تعالى الحكم العدل، وعن سننه في الخلق، وأنه لم يفضل شيئاً على آخر **إلا لسبب وأوصاف** معينة، كقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢، الأحقاف: ١٩].

فالعبرة **للتقوى والعمل**، وهما **أساس التفاضل** بين الأفراد، والأمم، والشعوب، وليس بمجرد الجنس أو النسب أو العرق.

الثاني: إن الواقع العملي اليوم يكذب هذا التفسير، فالأمة الإسلامية اليوم ليست أفضل الأمم قطعاً ويقيناً، ولا مثل الأمم، بل هي في مؤخرة الأمم، مع ما تعاني من الذل والاحتلال والسيطرة الأجنبية والتشرذ والتفرق والتخلف.

فكيف تكون الأمة الإسلامية خير الأمم؟

◈ منشأ الخطأ وسببه:

إن السبب في هذا الخطأ في التفسير ناجم عن مصيبة تشيع بين الناس، وهو الاقتصار على جانب من القرآن أو جزء من الآية، وعدم إكمالها وبيان المراد منها، مثلما يقولون: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ويقولون ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ﴾.

وهذا المرض والخطأ حذّر منه القرآن الكريم في وصف اليهود والنصارى وأعداء الإسلام وموقعهم من القرآن والإسلام وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] أي أجزاء متفرقة فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ثم هددهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

◈ التفسير الصحيح للآية:

إن آخر الآية هي التي تفسرها تفسيراً صحيحاً، وهو ما بينه المفسرون صراحة، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وليس النصر هدية مجانية للمسلمين.

أي تصبح هذه الأمة، وهذا المجتمع خيراً من غيره عندما **يقوم بالأمر** بالمعروف، وهو ما جاء به الإسلام وأمر به، ونادى فيه، وأراده الله تعالى من الخير والإصلاح في جميع نواحي الحياة، وعندما **تنهى عن المنكر** وهو ما نهى الشرع عنه وحذر منه، لما فيه من مضار ومفاسد، فتبتعد عنه، وتتجنبه، وتحذر من الوقوع، وبشرط آخر، وقد يقع الأمران في بلد مشرك أو مجتمع وثني، ولكن الآية شرطت شرطاً ثالثاً، وهو «تؤمنون بالله» فإذا توفرت

العناصر الثلاثة وهي:

١- الإيمان بالله.

٢- الأمر بالمعروف.

٣- النهي عن المنكر.

كان المجتمع خير المجتمعات، لأنه صار نقياً من الفساد، ومشحوناً بالخير والصلاح، وملتزماً بشرع الله ودينه.

وفي هذه الحالة تكون (هذه الأمة الموصوفة بهذه الصفات حصراً) خير الأمم على وجه الأرض، ولذلك قال بعض المفسرين إن هذه الآية هي **وصف للأمة الإسلامية زمن النبي** ﷺ وفي عصره، لأنهم كانوا يؤمنون بالله حق الإيمان، ويأمرون بالمعروف ويعملونه، وينهون عن المنكر ويجتنبونه.

وكل عنصر أو شرط يحتاج إلى بحث خاص، بل أكثر من بحث، ولكني اقتصر على أحد هذه العناصر، أو أحد هذه الشروط، لتكون أمتنا خير الأمم، وهو النهي عن المنكر.

◈ تعريف المنكر:

المنكر هو كل ما أنكره الشرع أو الدين أو الإسلام، أو نهى عنه، أو منعه، أو حذر منه، أو خوف منه، أو وضع العقوبة عليه في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما معاً، أو أنكره العقل السليم.

وسبب الإنكار أو التحريم أو المنع للمنكر لما فيه من **أضرار ومفاسد** وأضرار، وشرور بالفرد والمجتمع والأمة.

والمنكرات في الشرع معروفة غالباً لمعظم الناس، فالحلال بيَّن والحرام

بيّن، ولكن المشكلة والمصيبة والطامة الكبرى هو بعدم الالتزام بالنهي عن المنكر أو عدم اجتناب المنكر، وخاصة أن الناس اليوم **غارقون بالمنكرات**.

وهذا هو **سبب الانحطاط للأمة، والتخلف، والفساد**، وأنها قطعاً ويقيناً أنها ليست خير الأمم، بل ليست كالأمم الحاضرة في نظامها وحياتها وعزتها وكرامتها وتقدمها.

وبعض المنكرات تسمى كبائر كما بيَّن ذلك رسول الله ﷺ، كالإشراك بالله، وعقوق الوالدين، والربا، والزنا، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وقال: الكبائر..، وقال: «اجتنبوا السبع الموبقات..».

هذا التعداد ليس للحصر، فكل ما يخالف الشرع منكر، والناس اليوم تفعل المنكرات وتجاهر بها، وتتحدى شرع الله ودينه، وتعلن المنكر وتنشره على الملأ.

فمن ذلك هذه **الأعراس المختلطة** التي تجمع الرجال والنساء، والشباب والشابات، والبنات والصبيان في الشوارع للرقص المختلط والغناء الماجن مما يقشعر منه البدن.

وأسأل -مما لا يمكن تصوره، ولا قبوله- كيف يقبل رجل مسلم فيه ذرة من إيمان أو شرف، أو يحرص على عرضه أن تنزل بنته أو زوجته أو أخته لتخلع جلباب الحياء، وترقص مع الرجال، وأمام الرجال؟ أين العرض ؟ وأين الشرف ؟ وأين النخوة؟ وأين الكرامة والشهامة؟

أما **تخشون على شبابكم** من هذه المناظر التي يطرب لها الشيطان ويدعو إليها ويشارك فيها، ويتغنى أن المسلمين يفعلونها، وما هو مصير هذا الشاب بعد هذا الاحتفال الماجن؟ فأين ينام؟ وكيف ينام؟

كيف يرضى العريس أو أهله وذووه أن تجمل العروس وتزين ساعة وساعتين له، ثم يعرضها على الجماهير، والعيون الفارغة التي تأكلها كالنار في الهشيم؟

وفوق كل ذلك تدار **كؤوس الخمر والشراب على الرؤوس**، وتفعل فعلها، فتضيع العقول، ويصبح الناس أشبه بالحيوانات ليضرب بعضهم بعضاً، وتسيل الدماء، **فيا فرح الشيطان وأعوانه**، ويا سعادة أعداء الإسلام من هذا المنظر المشين.

وهل يجرأ واحد أن يقول إن أمة المسلمين خير الأمم؟ أليس ذلك تشويه؟ وافتراء على القرآن؟ وكذب على الله تعالى؟

ولا تسأل عن المنكرات الأخرى التي تشيع، بل تكاد تعم،وتسيطر على المجتمع، كأكل أموال الناس بالباطل كما حدثني أحد الإخوة في موضوع التحديد والتحرير للأرض وأن كثيراً من الناس لجأ إلى التزوير والغش وتسجيل الأرض باسمه، وتغافل عن قول رسول الله ﷺ «من أخذ شبراً من أرض طوّقه سبعين ذراعاً في جهنم» وكذا الربا والرشوة، وغيرها.

وإن المنكرات **تتشيع وتنتشر**، وتعم وتسيطر، ولذلك كانت النتيجة التي نراها لأمتنا الحاضرة، وهو ما حذر منه القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

ونعود **للنهي عن المنكر** الذي وردت فيه آيات كثيرة، وأحاديث عديدة، وذلك لتطهير المجتمع من المنكرات التي تفتك بالأمة، وتدمر كيانها.

فأمر بالنهي عن المنكر بشدة وحزم، فقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾.

ووصف الله الأمة التي يريدها الله تعالى بقوله: ﴿ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

ووصف الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وبيّن الله تعلى وصف الأمة التي يمكّنها في الأرض بذلك فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

وجاءت أحاديث كثيرة في ذلك توجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحذر من عاقبة ترك ذلك، وانتشار المنكرات ويكفي حديث واحد «من رأي منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الأيمان»[1].

---

(١) رياض الصالحين ص١٠٣.

سادساً: عالمية الإسلام وآلية التطبيق

تقديم لكتاب

«التربية الإسلامية في الصين للسيد / موسى جمعة»

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الناس جميعاً، وأرسل لهم الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، وختم الله الأنبياء بمحمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والصلاة والسلام على رسول الله، المبعوث رحمة للناس أجمعين، القائل: «لا فضلَ لعربي على أعجمي، ولا لأبيضَ على أسودَ إلا بالتقوى» وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإن **عالمية الإسلام** أمر مقرر، ومتفق عليه، وثابت بالنصوص القطعية، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ، ومبيناً وظيفة الرسالة التي كُلِّف بها، والأمانة التي حَملّه إياها، فقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فهذه الآية تبين خاصيَّة رسالة محمد ﷺ، وميزاها على سائر الشرائع بميزة العموم والدوام، وأنها رحمة للعالمين، واشتملت هذه الآية -على وجازة لفظها- على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأنها مظهر لرحمة الله تعالى للناس كافة، وأفادت عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، بلفظ «للعالمين» أي لجميع الأجناس والأقوام، وأن رسالة محمد ﷺ تمثلت بأفضل صورها برسول الله، ليكون هو ورسالته رحمة للعالمين.

وأكد القرآن الكريم هذا المعنى في عالمية الرسالة لكافة الناس، والأقوام، والأجناس، والأعراق، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

وإن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ لجميع الخلق ليكون مبشراً للمؤمنين والصالحين، والعاملين المخلصين، بالسعادة في الدنيا وجنات النعيم في الآخرة، ومنذراً للعصاة المذنبين، والظالمين والمعتدين، والبغاة والطغاة، والمشركين والكافرين من نكد الدنيا وشقائها، وعذاب الجحيم يوم الدين.

ولفظ «**كافَّة**» من ألفاظ العموم، وهي حال من «**الناس**» أي للناس كافة، وقدم القرآن الكريم الحال على صاحبه للاهتمام بها، ولتأكيد عالمية رسالة الإسلام لجميع الناس دون تفريق بينهم باللون أو الجنس، أو اللغة، أو الأرض.

وجاءت السنة النبوية الشريفة تبيّن هذا الشمول في الشريعة، والعموم للناس، والعالمية للإسلام، وذلك في عدة أحاديث، منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أُعطيتُ خَمْساً» وفي رواية «فُضِّلْتُ على الأنبياء بخمس»، وفي رواية «بست» ومنها «**وبُعِثْتُ إلى النَّاس عامّة، وبُعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ**»[1].

قال النووي رحمه الله تعالى: «قيل المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان، وقيل:

---

(١) صحيح البخاري ١/١٢٨ رقم ٣٢٨ طبع دار القلم بدمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٣ رقم ٥٢١ طبع المكتبة المصرية بالقاهرة- ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠م.

المراد بالأسود السودان، وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم، وقيل: الأحمر: الإنس، والأسود: الجن، **والجميع صحيح، فقد بُعث إلى جميعهم**»[1].

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلتُ على الأنبياء بست: أعُطيتُ جوامِعَ الكلم، ونُصِرتُ بالرُّعْب، وأُحِلّت لي الغنائمُ، وجُعلت لي الأرضُ طهوراً ومسجداً، **وأُرسِلتُ إلى الخلق كافةً**، وخُتِم بي النبيون»[2].

فكان الإسلام ديناً عاماً، عالمياً، شاملاً، جامعاً، داعياً إلى وحدة العقيدة والفكر والثقافة، والمحافظة على الذات واللغة، والجنس والقوم وغيرهُ، مما يعتبر وعاء يحتاج إلى ما يشغله فيرقى به، ويؤكد وحدة الإنسانية، وحاجتها للتآلف والتعاون والتناصر والتناصح.

وهذا يوجب على الرسول أولاً، وعلى كل مسلم ثانياً، **أن يُبلِّغ الدعوة الإسلامية، وينشر الإسلام**، ويوصل دين الله إلى عباد الله أجمعين.

ولكن المشكلة التي تُطرح، والاعتراض الذي يُثار، أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وبيَّن الله تعالى أنه أرسل الأنبياء والرسل بلسان قومهم، لأنهم مرسلون لهم خاصة، ثم بين أنه

---

(١) صحيح النووي على شرح مسلم ٥/٥.

(٢) صحيح مسلم ٥/٥ رقم ٥٢٣.

أرسل محمداً في الأمة العربية فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وإن محمداً ﷺ عربي، وأن أمم الأرض من أجناس مختلفة، ولهم لغات متباينة، فكيف يتم التبليغ، وكيف تتحقق العالمية للقرآن ودعوة الإسلام؟؟

والجواب أن **آلية التطبيق** واضحة ومحددة في الشريعة الغراء، والسنة المطهَّرة، وطُبقت عملياً منذ العهد النبوي، وطوال التاريخ الإسلامي، ويتجلى ذلك بل ويسهل في عصرنا الحاضر بالتقنيات المعاصرة، وسهولة المواصلات، وسرعة الاتصالات، ووجود المذياع والتلفاز، ثم القنوات الفضائية، وفي قمة ذلك توفر الإنترنت اليوم، بالإضافة إلى ترجمة العلوم والكتب والثروة العلمية والتراث الإسلامي الغزير.

فمن ذلك أن **بعض الصحابة كانوا من غير العرب**، كبلال الحبشي وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وقد دخلوا في الإسلام وعرفوا القرآن والسنة والأحكام، وقاموا بالتبليغ لقومهم وأهل جلدتهم، وبني جنسهم، وتضاعف العدد مئات الأضعاف من التابعين ومن بعدهم.

ومن ذلك أن عدداً كبيراً من صحابة رسول الله ﷺ كانوا يعرفون لغات الأقوام التي تجاور البلاد العربية كالفرس والروم والحبشة وغيرها، وقاموا عملياً بنقل الإسلام إلى أهل هذه الجنسيات والأقوام، نذكر منهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه المبعوث والمتحدث والداعي والمبلغ للنجاشي الحبشي، وكان معه عدد كبير من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة، ونقلوا الإسلام إلى أهل الحبشة بلغتهم قطعاً، ومنهم أبو سفيان رضي الله عنه الذي كان الوسيط والمتحدث مع هرقل قيصر الروم بدمشق، واستفسر منه كثيراً عن محمد والإسلام.

وكان عدد كبير من الصحابة العرب يتعاملون مع الروم، ويتاجرون مع بلاد الشام التي كانت تحت حكم الرومان، وكان الصحابة ينقلون الدعوة ويبلغونها إلى أهل الشام من العرب والروم معاً، وتوفرت الأعداد الكبيرة فيما بعد في عصر الصحابة والتابعين، وفي العهد الأموي والعباسي وما يليه.

ومن ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل إثنى عشر رسولاً إلى إثني عشر **ملكاً من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام**، وكان الرسل يتقنون لغة القوم الذين يُرسلون إليهم لشرح الدعوة، وللمحاورة والمجادلة والبيان والتوضيح والجواب عن أسئلة غير العرب واستفساراتهم.

ومن ذلك أن **الإسلام فرض على كل مسلم غير عربي أن يتعلم من لسان العرب ما وسعه جهده**، ليستطيع تحقيق الإيمان، وأداء العبادات، وقراءة القرآن، وذكر الله تعالى، وبالتالي ليبلغ سائر قومه بالإسلام، ويدعوهم إليه، وهذا ما حصل فعلاً بأن تعلم ملايين المسلمين من غير العرب اللغة العربية، ثم أتقنوها، وفاقوا فيها الأقران، بل فاقوا أهل العربية، وقاموا بخدمتها، وضبط أحكامها، والتأليف فيها بملايين الكتب العربية من مؤلفين غير عرب، حتى أن معظم معاجم العربية، وكتب اللغة وفقه اللغة، والقواعد والنحو والبيان والبلاغة وغيرها كانت من مسلمين غير عرب، ومن غير المسلمين من غير العرب، لذلك كان فضل القرآن على العرب عظيماً جداً، فوحّد لغتهم أولاً، وجمع شملهم ثانياً، وحفظ لغتهم ثالثاً من التطور والتغيير والتبديل، ثم نشرها في أرجاء العالم وبين سائر الأقوام رابعاً، قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، قال: «فالقرآن نزل بلسان قريش، وإياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم، كل من

آمن بذلك، فصاروا عيالاً عليهم»[1].

ومن ذلك **ترجمة معاني القرآن**، وترجمة أحكام الدين والشرع والفقه والأخلاق الإسلامية وغيرها إلى اللغات الأخرى ليطلع عليها أبناؤها، ويتعلموا الإسلام، وتصلهم الدعوة، طوال التاريخ الإسلامي، وبرز ذلك وظهر وتضاعف في العصر الحاضر، نتيجة لاتصال الأمم والشعوب والحضارات والثقافات وتبادل الزيارات وذهاب البعثات العربية والإسلامية إلى مختلف الدول، وهجرة أعداد كبيرة من المسلمين إلى مختلف البلاد والعواصم والمدن في أقطار العالم.

وهذه النماذج التي حصلت في العهد النبوي تضاعفت مئات المرات في التاريخ الإسلامي حتى اليوم، وانتشر الإسلام شرقاً إلى الصين وماليزيا وأندونيسيا واستراليا، وغرباً إلى الأندلس وجنوب فرنسا، وشمالاً إلى أرمينيا وأذربيجان وما بين النهرين وسيبيريا وروسيا وأوكرانيا وبلاد السويد وفنلندا والنرويج، وجنوباً إلى أقصى بلاد أفريقيا، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، حتى تحققت اليوم معجزة رسول الله ﷺ أن هذا الدين سيبلغ مطلع الشمس ومغربها، وحيثما وجد حجر ومدر، والواقع يبين أن المسلمين منتشرون في أرجاء الأرض، وفي جميع دول العالم تقريباً، وفي جميع أصقاع الكرة الأرضية.

وقد قام المسلمون العرب أولاً، والمسلمون من غير العرب ثانياً، **بنشر الإسلام، وتبليغ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة**، وأن معظم دول العالم اليوم في آسيا، وأوروبا، وأستراليا، وأمريكا، وأفريقيا، قد دخلها الإسلام بالدعوة، وعن طريق العلماء، والدعاة، والتجار، ولم يدخلها جيش إسلامي،

---

(١) تفسير القرطبي ٩٣/١٦، وانظر: الرسالة للإمام الشافعي ص ٤٨.

وكان نور الإسلام يبزغ في كل مكان، وكانت شمس الإسلام تسطع على المعمورة، وأن أكبر تجمع للمسلمين في العلم اليوم يقع في أندونيسيا وماليزيا وجنوب شرق آسيا، وغرب الصين، وبلاد الهند الصينية التي لم تدخلها الجيوش الإسلامية وإنما دخلتها الدعوة عن طريق التجار والدعاة والعلماء بسر الإسلام وعظمته في عقيدته وأركان الإيمان فيه، وسماحة التشريع والأحكام، وسمو الأخلاق، وحسن المعاملات العملية، لأنه دين الفطرة التي فطر الناس عليها، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وهكذا كانت **التربية الإسلامية، والتعليم الإسلامي أهم آليات الدعوة الإسلامية،** ونشر الإسلام قديماً، وهي الدعامة الأساسية، والمنهج القديم لتثبيت الإيمان والعقيدة والإسلام لدى المسلمين أولاً، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام ثانياً.

وهذه **التربية الإسلامية** هي الشعاع الذي ينتشر الآن في معظم دول العالم، وفي جميع الكرة الأرضية، سواء كانت رسمية من الدولة مباشرة في وزارات التربية والتعليم والثقافة، والإعلام، والتعليم العالي، أم كانت غير رسمية في المدارس الدينية، والجمعيات، والمراكز، والجامعات، والمعاهد.

وهذه **التربية الإسلامية** هي التي تشع في أجهزة الإعلام في الصحف والمجلات، وفي الإذاعات والتلفاز، والمجلات، والأشرطة، والقنوات الفضائية، وأخيراً وليس آخراً عن طريق الإنترنت الموجه للعالم أجمع، وبمختلف اللغات، وعن طريق الكتب والنشرات والدعايات في مختلف اللغات.

وهذه التربية وآلية الدعوة والتبليغ هي التي قام بها الدعاة المخلصون في الشرق والغرب، وعلى مر الأيام، وهي التي يقوم بها الدعاة الجدد في العصر الحاضر، وتأكدت بفتح المدارس الإسلامية، والمعاهد الدينية، وكليات الشريعة والدعوة وأصول الدين، والجامعات الإسلامية التي تستقطب أبناء العالم الإسلامي من مختلف الأقوام والجنسيات ليتعلموا الإسلام والدين والأحكام، ثم يرجعوا إلى قومهم مبلغين ودعاة ومبشرين ومنذرين، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ولذلك تغصُّ هذه المؤسسات الدينية الإسلامية بطلبة العلم الشرعي من غير العرب، ليتزودوا بالعلوم الإسلامية، ثم يقوموا بواجبهم في بلادهم.

ويضاف إلى ذلك ما تقوم به **المؤسسات الدينية الإسلامية في البلاد غير العربية ذاتها**، كانت ذات أكثرية مسلمة، أم كانت ذات أقلية، من واجب التعليم الإسلامي، والتربية الإسلامية، وخاصة المساجد والمدارس، مما يعزز الوجود الإسلامي، ويثبت الدّين والإيمان والعقيدة، ويرغب بالإسلام وتعاليمه، ويحافظ على تطبيق الأحكام الشرعية، والأخلاق الإسلامية بشكل يكاد أن يكون معجزة للقرن العشرين والقرن الحادي والعشرين، مما يبشر بصحوة إسلامية باهرة، وانتشار عريض وعميق للدعوة الإسلامية، ودخول المفكرين وكبار العلماء في العالم في الإسلام حباً وطوعاً واختياراً وقناعة، ورغبة وحماساً.

وإن كثيراً من المسلمين في البلاد غير العربية، وفي البلاد ذات الأقلية المسلمة، يعتبر **نموذجاً صالحاً للدعوة ولتطبيق الإسلام**، ويكون سلوكه

الإسلامي، والتزامه الديني، ومعاملاته السامية الصحيحة، وسائل للدعوة الإسلامية، والترغيب بالإسلام، وبالتالي لدخول الآخرين في الدين الحق.

وهذا ما نحمد الله تعالى عليه، ونسأله الثبات والتوفيق، وندعو بالمزيد، ونشعر بالشكر والنعمة الجلية بفضل الله على عباده والخلق أجمعين، إلى أن تتحقق الآمال، ويظفر المسلمون، ويفرح المؤمنون بنصر الله بنشر دعوته.

وهذه المقدمة نضعها بين يدي الكتاب الذي أعده الشاب النبيه، والطالب النجيب، السيد تشاو باو قوي موسى جمعة، الذي قدم من الصين لتلقي العلم الشرعي، والمعرفة، والإسلام الصحيح، في ربوع دمشق ومعاهدها وكلياتها وجامعاتها، وحصل على الإجازة (الليسانس/ البكالوريوس) في الدعوة الإسلامية، من كلية الدعوة الإسلامية/ فرع دمشق، ثم التحق بالدراسات العليا في كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في لبنان- بيروت، ونجح في امتحان المقررات المطلوبة، ثم قدم أربعة بحوث تمهيدية للتسجيل في الماجستير، وهذه البحوث هي:

١- التربية الإسلامية في الصين.

٢- بعض أحكام السحر والتحصن منه.

٣- حكم طاعة الوالدين في ترك أو قطع فروض الكفاية.

٤- صلاة الجمعة والعيدين وتطبيقاتهما في الصين.

وقد عرفتُ الطالب موسى أثناء التدريس في كلية الدعوة الإسلامية، ولمست فيه النباهة، والرقة، والأدب الجم، والخلق الرفيع، والدماثة، والحرص على طلب العلم، وحسن معاملة الزملاء والأصدقاء، والاحترام الكامل للعلماء والمدرسين، والشغف العلمي، والطموح لنيل أعلى الشهادات، والتحرق على

الدعوة الإسلامية في الصين، والصلة الوثيقة مع أبناء قومه، حتى حضر كبار موظفي السفارة الصينية بدمشق حفل تخرجه، ثم تابع المشوار للدراسات العليا، ولذلك نبارك جهوده الطيبة، وأعماله المرموقة، وبحوثه العميقة والنافعة والمفيدة، وخاصة بحث «التربية الإسلامية في الصين» ليعطي العرب والمسلمين في العالم صورة صادقة عن الإسلام عامة في الصين، وعن التربية الإسلامية خاصة، وهو المولود فيها، والعارف لأحوالها، ليقدم للعالم ما يجهله الكثيرون، وأهل مكة أدرى بشعابها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وعندما قرأت بحوثه ازددت به ثقة، وأيقنت بكفاءته العلمية، وقدرته على البحث، وثقته بنفسه، وتأكد لي طموحه العلمي، ومستقبله الباهر، وقدم بحثه بفصل عن وصول الإسلام إلى الصين، ثم بفصل عن التربية والتعليم وغاية الإسلام فيهما، ثم عرض طريقة التربية الإسلامية ومراتب التعليم والعلوم الشرعية في الصين سواء داخل البيت، أم أثناء الزيارات، أم في المسجد، مع ألقاب المعلمين باللغة الصينية المحلية، ومراتب التعليم في الصين، ثم بيَّن العلوم الشرعية والعلوم العربية التي تدرس في الصين، ليخصص فصلاً عن الحفاوة والتكريم والاحتفال للمتخرجين وتنصيب الخريجين بألقاب الإمامة، وختم بحثه بالهموم والمصاعب والإشكاليات التي تعاني منها التربية الإسلامية في الصين، مع تقديم بعض الاقتراحات والحلول الممكنة لذلك، لتكون في أحسن صورها، وتحقق الأهداف المرجوة منها[1].

---

(١) التربية الإسلامية في الصين، إعداد تشاو باو قوى/ موسى جمعة، طبعة الكومبيوتر، بحث مقدم إلى كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية- بيروت- لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

ونسأل الله أن يحفظ الأخ تشاو باو قوى/ موسى جمعة، وأن يـــرده إلى بلاده ليكون من الدعاة، وينفع به أهل بلده، ويجزيه خيراً، ليكون من الدعاة، والمصلحين، والعلماء العالمين، وأن يبارك في عمره وعمله، ويحفظ له أولاده وذريته التي سعدنا برؤيتها في دمشق.

كما نسأل الله تعالى أن يعينه على إتمام داسته وحصوله على الماجستير والدكتوراه في الدراسات الإسلامية ليحقق طموحه، ويكون الشعلة المتقدة في بلده وبين أهله، ويمثّل التطبيق العملي، والترجمة الواقعية للآية الكريمة السابقة التي نكررها ثانية ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وكما نتطلع إلى انتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا في هـــذا القـــرن الحادي والعشرين، وهو ما تدل عليه البشائر، فإنا نتطلع إلى انتشار الإسلام في أكبر بلد في العالم في عدد سكانه، وهو الصين، ليسطع منه النور، وينبلج منه الصبح في المشرق، ليمتد إلى المغرب، وخاصة أن العلاقات الودية الطيبة قائمة بين البلاد العربية والإسلامية والصين طوال التاريخ، وحتى اليوم، مـــع التسامح الديني الذي يسود بين أهل الصين من مختلف الأديـــان وأصـــحاب المذاهب والفرق، مما يفتح المجال أمام الدعوة الإسلامية لتأخذ مداها، وتعمل عملها، وتحقق غرضها بإذن الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

سابعاً: الوقت هو الحياة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الوقت هو الحياة مبدأ إسلامي ثابت ومقرر، وهو شعار يجب التوقف عنده، والتأمل في مضمونه، لتمثل حقيقته، والعمل به، ليكون تعبيراً صادقاً لاغتنامه في خيري الدنيا والآخرة.

والوقت يترجم إلى مراحل، كل مرحلة لها طبيعتها وماهيتها ومايقابلها من الزمن، ولا يكتب لها الدوام والاستمرار، وكثيراً ماتنقلب إلى الضد، والعاقل يتحين هذه الأوقات ليضع الأشياء في مكانها المناسب قبل أن تزول عنه، وتفوته الفرصة، ولا يستطيع تعويضها، ويقع في الملامة حيث لا تنفعه الندامة، وتصيبه الحسرة حيث لا يملك العوض.

يقول رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك» (رواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي).

ولا يكتفي رسول الله ﷺ بالنصح لاغتنام الوقت والفرص، والاستفادة من العوارض والأحوال، بل يدعو إلى المسارعة فيها، والتنافس عليها، والمبادرة إليها قبل زوالها فيقول: «بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا» (رواه مسلم).

أي ابتدروا وسارعوا إلى الأعمال الصالحة قبل ظهور الفتن والعوائق والموانع والذنوب والمحن والمصائب التي تحول بين المرء وعمل الخير، فالوقاية

خير من العلاج.

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، ترزقوا وتنصروا وتجبروا» (رواه ابن ماجه).

وحدد رسول الله ﷺ بعض الجوانب الخطيرة التي يجب تجنبها قبل أن تقع، وأن يسارع الإنسان إلى الحذر منها والاحتياط لها، لاكتساب المناعة، وتأمين الوقاية وأرشد رسول الله ﷺ إلى التزام الحيطة، والأخذ بجانب الحق والصواب، فقال عليه الصلاة والسلام: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مُطغياً، أو مرضاً مُفسداً، أو هرماً مُفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال، فإنه شر منتظر، أو الساعة، والساعة أدهى وأمر» (رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيح وأقره الذهبي عليه).

والوقت يتمثل في هذه الحياة الدنيا التي يعيشها الإنسان، سواء قصرت أم طالت، وهي مجال الكسب للدنيا والآخرة، فإذا جاء الموت انقطع العمل، وتوقف الإنتاج والعطاء، وتعطلت الحواس إلا ماسبق للإنسان ادخاره إلى مابعد الموت ليبقى اسمه، ويخلد ذكره، ولذلك قال الشاعر:

دقات قلب المـــرء قائلـــة لـــه ... إن الحيـــاة دقـــائق وثـــوان

ارفع لنفسك قبل موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمـــر ثـــان

وبين ذلك رسول الله ﷺ بشكل واقعي وتربوي وعملي، فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له» (رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي والبخاري في الأدب المفرد).

وإن وراء الوقت شبح مخيف، وسور منيع، وحد صارم، يقطع الأمل والعمل، ولا يترك لصاحبه حيلة ولا وسيلة، وهو الموت الذي لايتأخر لحظة عن موعده، ولا يقبل عذراً مهما كان لتأجيله لاستدراك تصرف، أو إتمام عمل، كيفما كان الإنسان ومهما كانت غايته، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي ذلك دعوة إلى الطاعة والعمل، والجد والنشاط، والسعي والاجتهاد، واستغلال الوقت، وملئه بما يعود بالنفع، مع المسارعة إلى الخير، وهو ماوصف الله تعالى به عباده المتقين الصالحين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، [المائدة: ٤٨].

وفي ذلك تحذير من التواكل والكسل، والارتخاء والاستسلام، والخلود إلى الراحة، وتمني الأماني مع القعود عن أداء الأعمال، أو التفريط في المداومة عليها، والتهرب من الأحكام والتكاليف والواجبات، وكأنه يريد أن تقف الحياة عن سيرها، لتواكب همته التعساء، وخموله المتواصل، ويظن أن الله سيسخر له بعض المخلوقات لتأمين رزقه، وتحقيق آماله وأحلامه، والدفاع عن نفسه وعرضه ووطنه وأمته ومصالحه، وهو ما بيَّنه رسول الله ﷺ بقوله: «العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» (رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم).

ويتحقق ذلك بالتفلت من الأحكام، والتهاون بالواجبات، والتهرب من الالتزامات، والتسويف في الأداء، والحلم بالأماني العريضة والآمال الواسعة، وكأنه يحمل وثيقة ضمان وتأمين على بقاء الحياة، ولا يدري أنه يغتر بالحاضر، ويأنس بالأدون، وينسى أو يتناسى حقيقة الحياة، ودوران الأيام، ويضيع الوقت سدى، فتضيع معه الحياة، ويسبقه الآخرون سواء كان ذلك للفرد أو للجماعة أو للأمة، ولابدَّ من الجد والاجتهاد والكفاح، والعمل والكسب، واستغراق جميع الأوقات ليظفر بالفوز والرضوان.

اللهم بارك لنا في أوقاتنا وأعمارنا، ولا تجعلنا من الغافلين، والحمد لله رب العالمين.

ثامناً: التحديات المعاصرة

الحمد لله الذي هدانا للإيمان، وأتم لنا الدين والإسلام، والصلاة والسلام على رسول الله الذي جاهد في الله حق جهاده، ثم أدى الأمانة وبلغ الرسالة ولحق بالرفيق الأعلى، ورضي الله عن صحابته الغر الميامين الذين كانوا معه في خندق الجهاد، ثم حملوا راية الإسلام خفاقة إلى الشرق والغرب.

وبعد:

فإن الصراع بين الخير والشر قديم قدم الإنسان، وقد واجهت التحديات والصعوبات أنبياء الله ورسله، حتى اندحر الباطل، وظهر دين الله، وظهرت هذه التحديات بشكل سافر منذ مطلع البعثة النبوية، ومنذ اليوم الأول الذي أعلن فيه محمد بن عبد الله أنه نبي الله ورسوله، واشتد الأذى والمضايقات في مكة حتى التآمر على حياته ﷺ لإطفاء نور الله، ثم واجه هذه التحديات في المدينة التي شهدت الغزوات والصراعات الحادة، وتعرض المسلمون للتحديات الخطيرة من الداخلي عن طريق اليهود والمنافقين، ومن الخارج من المشركين والدول المجاورة.

واستمر التحدي أمام الدعوة الإسلامية من جميع الأنحاء، ومن مختلف الجهات، وعلى الأصعدة المتعددة: الفكرية، والثقافية، والحضارية، والعسكرية، وكانت النتائج في معظم الأحيان لجند الله وأعوانه وأتباعه، وتحقق في الأخير النصر لدين الله، والبقاء لشرع الله، والحفاظ على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حتى وصلتنا كاملة صحيحة، ولكن أثخنتها الجراح في القرون الأخيرة، وحل العجز بالمسلمين وديارهم وأوطانهم.

وأطل العصر الحاضر بالتركة الثقيلة التي ورثناها، والنكبات التي أحاطت بنا، وبرزت التحديات المعاصرة التي تنال من الإسلام المسلمين، وتواجه الدعوة والدعاة، وتطرح شعاراتها الخادعة، وتستخدم أجهزتها المتطورة، وتستغل قوتها المادية والحضارية، والتقنية، وتنوع أساليبها البراقة الماكرة من الدعوات المشبوهة، بدءاً من العلمانية، والقومية، والإقليمية، والاشتراكية، والطائفية، والقبلية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وأخيراً -وليس آخراً- بالعولمة والنظام العلماني الجديد، والاحتلال والتدخل العسكري السافر، وتستخدم السياسية والاقتصاد والإعلام والفن والانقلابات العسكرية والحكومات العميلة، والرموز الوهمية من الحكام، ثم تسفر عن أهدافها ونواياها بالدعوة إلى تعديل المناهج التربوية، والخطط المدرسية والأنظمة التعليمية والجامعية، وتطالب بكل صفاقة إلى تحجيم، أو تجميد، وإلغاء المعاهد الدينية، وتفرض رقابتها على وسائل الإعلام، وتستأثر بوكالات الأنباء الكبرى التي تسود العالم، وتبث السموم، وتعرض الرأي الوحيد، وتحول دون الرأي الثاني، وتخفي الحقائق، وتتستر على الفضائح التي يرتكبها قادتها، ووصل الأمر أخيراً إلى فرض الأمر الواقع، والإيحاء ظاهراً، مع الطلب باطناً وسراً، بتنحية العلماء والمفكرين والموظفين من مراكز التأثير والتوجيه.

إنها تحديات خطيرة، وأسلحة فتاكة، وحربٌ ضروس بين الحق والباطل، ولكننا نبقى على ثقة ويقين مع قول الحق سبحانه وتعالى ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ ولكن لا يكفي الإيمان واليقين إذا لم يقترن بالعمل المتواصل، والصبر الدؤوب، لبيان الحق والحقيقة، وكشف الزيف والباطل، والدعوة الدائمة، والتذكير الحثيث، والتعاون الوثيق، والإخلاص في القول والعمل

للظفر برضوان الله تعالى في الدنيا والآخرة، ولأداء الأمانة، وتحمل المسؤولية، اقتداءً بالسلف الصالح ومن تبعه، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، والحمد لله رب العالمين.

تاسعاً: أثر القواعد الفقهية في الدعوة الإسلامية[1]

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والدعوة إلى الله تعالى واجبة على كل مسلم، لأن رسول الله ﷺ أمر من تعلّم آية أن يبلغها لغيره في بيته وأسرته ومجتمعه، فقال عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عني ولو آية»[2]، وتجب الدعوة خاصة على طلاب العلم الشرعي الذين يتعلمون أحكام الدين ليعلموها الناس، وتجب بشكل أخص على العلماء والدعاة الذين حملوا الدعوة والرسالة، وصارت أمانة في أعناقهم، ومسؤولية في الدنيا ولآخرة، لينهضوا بها، لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[3].

ومجالات الدعوة كثيرة، ولا حصر لها، وتنطلق من التوجيه الرباني القرآني في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي خضم العمل الإسلامي المعاصر، ومع المحاولات الجادة والبناءة والمخلصة والواعية في السعي لتطبيق الشريعة الإسلامية في الأنظمة والقوانين والحياة يظهر دور القواعد الفقهية في مجالات عدة للدعوة، وهذا ما أردت

---

(١) الوعي الإسلامي، العدد ٣٨٦، شوال ١٤١٨هـ- فبراير ١٩٩٨م.

(٢) هذا حديث صحيح رواه البخاري (١٢٧٥/٣)، ورواه الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمرو رضي الله عنهما (الفتح الكبير ٩/٢).

(٣) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي «الفتح الكبير ١٩٩/٢، الترغيب والترهيب ٩٤/١».

بيانه باختصار وإيجاز، بعد تعريف القواعد والإشارة إلى أهميتها:

◈ تعريف القواعد:

عرف أكثر العلماء القاعدة بأنها «الأمر الكلي المنطبق على جميع جزئياته»[(١)]، وهذا التعريف ينظر إلى القاعدة من حيث أصلها، وأنها قضايا كلية، وتشمل جميع الفروع التي تدخل تحتها، وأن ما يَرِدُ عليها من استثناء أمر طارئ ونادر، فلا يؤثر على القاعدة، وهذا ما صرَّحت به مجلة الأحكام العدلية، في المادة الأولى بقولها: «ثم إن بعض القواعد، وإن كان بحيث إذا انفرد يوجد من مشتملاته بعض المستثنيات، لكن لا تختل كليتها وعمومها من حيث المجموع، لما أن بعضها يخصص ويقيد بعضاً»[(٢)].

بينما عرفها العلامة الحموي في «حاشيته على الأشباه والنظائر» بأنها: «حكم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته»[(٣)]، وهذا التعريف نظر إلى الواقع، وأن معظم القواعد ليست كليه، وإنما تنطبق على معظم الفروع والجزئيات، وأن أكثر القواعد لها استثناءات تخرج عنها، فكانت أغلبية، لا كلية، وهذا ما صرح به الشيخ حسين المالكي، فقال: «من المعلوم أن أكثر قواعد الفقه أغلبية»[(٤)]، وسبب الاستثناء من القاعدة أن الحكم الاستثنائي أقرب إلى مقاصد الشريعة، وأهدافها العامة في تحقيق العدالة، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، ورفع الحرج، وتطبيق الرخصة.

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ١١٧٦/٥.

(٢) مرآة المجلة، يوسف آصاف ٧/١.

(٣) غمز عيون البصائر «على الأشباه والنظائر لابن نجيم» للحموي ٢٢/١.

(٤) تهذيب الفروق ٣٦/١.

◈ أهمية القواعد:

اتفق العلماء في جميع الفنون والعلوم على أهمية القواعد والضوابط في علومهم، لأن لكل علم قواعده الخاصة، كقواعد أصول الفقه، وقواعد التحديث ومصطلح الحديث، وقواعد النحو، وقواعد التفسير، وقواعد المنطق، وقواعد اللغة، وقواعد الصحة، وقواعد الكيمياء والفيزياء، وقواعد الحساب، وقواعد القانون التي تسمى أحياناً، -في الاصطلاح القانوني- المبادئ العامة.

كما اتفق علماء الشريعة على أهمية القواعد الفقهية، لما لها من ميزات، وأنها كما قال العلامة القرافي المالكي -رحمه الله تعالى- عنها: «قواعد كلية جليلة، كثيرة العدد، عظيمة المدد، مشتملة على أسرار الشرع وحكمه، لكل قاعدة من الفروع ما لا يحصى»[1]، ثم قال: «وهذه القواعد مهمة في الفقه، عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويَشْرف، ويظهر رونق الفقه ويعرف... ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات»[2]، وقال العلامة ابن نجيم الحنفي -رحمه الله تعالى- عن القواعد الفقهية: «وبها يرتقي الفقيه إلى درجة الاجتهاد، ولو بالفتوى»[3].

وهكذا تكوّن القواعد الفقهية الكلية ملكة فقهية تنير للعالم والفقيه والباحث والطالب الطريق لدراسة أبواب الفقه الواسعة، ومعرفة الأحكام الشرعية المعروضة عليه، واستنباط الحلول للوقائع في صياغتها مع عموم معناها وسعة استيعابها للفروع الفقهية الجزئية.

---

(١) الفروق، للقرافي ١/٢.

(٢) المرجع السابق ١/٣.

(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص١٥.

والقاعدة تحيط بأحكام الفروع والمسائل من أبواب الفقه المختلفة، بخلاف الضابط فإنه يجمع الفروع الفقهية والمسائل من باب واحد من الفقه، ومثاله «لا تصوم المرأة تطوعاً إلا بإذن زوجها وإن كان مسافراً» ومثل ما ورد في الحديث الشريف «أيُّما إهاب دُبغ فقد طهر»[1]، وهذا ما صرّح به السيوطي -رحمه الله تعالى- فقال: «لأن القاعدة تجمع فروعاً من أبواب شتى، والضابط يجمع فروعاً من باب «واحد»[2]، ويقول أبو البقاء الكفوي بعد تعريف القاعدة: «والضابط يجمع فروعاً من باب واحد»[3].

وإن مجال الدعوة الإسلامية -كما سبق- واسع، وسبله كثيرة، وليس للدعوة حدود، وتبدأ من الدعوة بالالتزام والسلوك، لتكون الدعوة بالقدوة والتأسي، ثم بالتذكير والنصح، إلى أن تنتهي بالجهاد بالنفس والمال والحرب والقتال، وهو ذروة سنام الإسلام، وينحصر بحثنا في أثر القواعد الفقهية في الدعوة الإسلامية، وكيفية استخدامها، وما يترتب على النطق بها، والتذكير فيها، وتأثيرها على السامع، وفي الواقع، وسهولة نقلها إلى الغير، وذلك في الأمور التالية:

أولاً: الجمع بين القواعد والدعوة:

وهذا الجمع ضروري جداً في كل عصر، وهو أكثر وأهمية في عصرنا

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم (٥٣/٤) ومالك (ص٣٠٨) وأحمد (٢١٩/١) وأبو داود (٣٨٦/٢) والترمذي، وهذا لفظه، وقال: حديث حسن صحيح (٤٠٠/٥) والنسائي (١٥٢/٧) وابن ماجه (١١٩٣/٢) والبيهقي (١٦/١) والإهاب «الجلد» قبل أن يدبغ من الحيوان الميت.

(٢) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي ٧/١.

(٣) الكليات، لأبي البقاء الكفوي ٤٨/٤.

الحاضر، لأن الفقيه يجب أن يكون داعية، وأن يحسن أساليب الدعوة، وأن يوصل الأحكام والشريعة إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن ذلك أسلوب القواعد الفقهية، لأنها أصبحت كأمثال شعبية وفقهية متداولة بين الخواص والعوام، ويسهل نقلها، وحفظها، وفهمها، واستيعابها، وهي حِكَمٌ عقلية تتردد على الأسنة، وتكثر في الكلام، ويركن إليها الناس، ويتقبلها الفكر والعقل، وهي في الوقت ذاته تقريب للأذهان، وتلقين للأحكام.

والداعية المسلم يجب أن يكون فقهياً، وعارفاً بقواعد الفقه، فلا يقتصر في الدعوة إلى الله تعالى في مجال العقيدة والتوحيد والفكر، ثم يترك الناس في فراغ عملي وسلوكي، ولا يبين لهم الشريعة لأن فاقد الشيء لا يعطيه، بل يجب بيان الأحكام الشرعية، والتطبيق العلمي، والسلوك الصحيح في الحياة حسب مقتضى الشرع والدين والفقه، لأن القواعد توضح الرؤية، وتقرّب البعيد، وتسهل الصعب، وتضع النقاط على الحروف، كما أن الداعية يواجه شؤون العصر، وتطور الأحداث والمستجدات الكثيرة، يستعين بالقواعد لمعرفة أحكامها، كما سنرى، كما تكثر الأسئلة الفقهية بجانب الأسئلة الفكرية والعقدية على الداعية، والناس ينظرون إلى الداعية بأنه يمثل الإسلام كاملاً، ويعرف الشريعة والعقيدة، ويتوجهون إليه بالاستفسارات المتنوعة، وعليه الإجابة والبيان.

ثانياً: القواعد في مجال التشريع:

وتظهر أهمية القواعد الفقهية في مجال الدعوة الإسلامية للتشريع الإسلامي، وعودة الشريعة للتطبيق الكامل والحياة، بعد أن غابت ردحاً من الزمان، وطبق جانب منها، وترك معظم الجوانب، وظهرت على الساحة

القوانين المستوردة وشراح القوانين، والعاملين من القضاة والمحامين والكليات الجامعية والمدرسين غير المختصين بالشريعة والفقه الإسلامي، ولا يمكن مناقشتهم وإقناعهم في كل فرع فقهي، وجزئية شرعية، فتأتي القواعد الفقهية لتسهيل المهمة أمام رجال التشريع في مجلس الأمة والقضاة، والمحامين، وشرّاح القوانين لتسهل لهم فرصة الاطلاع على الفقه الإسلامي بروحه ومضمونه وأسسه وأهدافه، وتقدم لهم العون باستمدام الأحكام منه، ومراعاة الحقوق والواجبات، وإصدار الأنظمة والتشريعات.

وقد يُقال: إن الشريعة صلحت لأزمان مضت، وإن الفقه حقق أغراضه في بيئات معينة في التاريخ، ولا يصلح الفقه لحل قضايا العصر، والأحداث المتطورة؟ ويأتي الجواب بالقواعد الفقهية، وأنها مبادئ عامة تصلح لكل زمان ومكان، وتتفق مع مختلف العقول والبيئات، فمن ذلك مثلاً قاعدة «العبرة في العقود للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني» وقاعدة «لا ضرر ولا ضرار» وقاعدة «الأصل بقاء ما كان على ما كان» وقاعدة «لا عبرة للدلالة في مقابلة التصريح» وقاعدة «الأصل براءة الذمة» في الجنايات والمداينات، وهو ما يتردد على الأسنة اليوم «المتهم بريء حتى تثبت إدانته»، ومثل قاعدة «لا ينسب إلى ساكت قول» وقاعدة «الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف» وقاعدة «إذا اجتمعت مفسدتان روعي أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما» وقاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المنافع» وقاعد «يُتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام» وقاعدة «البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر» وقاعدة «اليقين لا يزال بالشك» ومجالها في العبادات والمعاملات والجنايات والقضاء والدعوى، وغير ذلك من القواعد الكثيرة، وذلك أن الفقه الإسلامي

واسع الأبواب، مترامي الأطراف، يغرق في خضمه فطاحل الرجال، ويصعب على غير المتخصصين الإحاطة به، لأنه بحر زاخر، وتراث عظيم، وهو أعظم ثروة تشريعية عرفها البشر، ولذلك يستعين العالم والداعية بالقواعد الفقهية، لأننا أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، وأن نقرب لهم البعيد، ونبسط لهم المركب، لذلك جاء في رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لأبي موسى الأشعري: «اعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى»[1].

ثالثاً: القواعد الفقهية ووحدة الأمة:

إنا ندعو اليوم إلى وحدة الأمة العربية والإسلامية، وهذه الوحدة لا تفرض بالقوة والاحتلال والغزو، بل تقوم على الدعائم الثابتة والأسس المشتركة في الوحدة الثقافية والدينية والاقتصادية، والسياسية، والتشريعية، وغيرها.

والقواعد الفقهية تقدم مساهمة فعّالة في ذلك، فهي إحدى الوسائل العملية اليوم في وحدة التشريع، وتشابه القوانين العربية، وظهر ذلك واضحاً جلياً -اليوم- في القواعد الفقهية التي نصت عليها مجلة الأحكام العدلية، واقتبسها بالحرف القانون الأردني، ثم الإماراتي، ثم القانون السوداني ثم اليمني، وكانت المحور الرئيس في مشروع القانون العربي الموحد، فجاءت المبادئ

---

(١) هذه الرسالة تلقاها العلماء بالقبول وسماها محمد بن الحسن الشيباني «كتاب السياسة» أي القضائية، أو دستور القضاء، وثبتت في كتب السنة، ورواها الدارقطني (٤/٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٢) والبيهقي (١٠/١١٥، ١١٩) وغيرهم ورواها وكيع في أخبار القضاة (١/٢٨٤) وابن القيم في «أعلام الموقعين ١/٨٦) وشرحها بما يزيد عن أربعمئة صفحة، واعتمد عليها جميع الفقهاء.

العامة والأسس واحدة في دول عدة.

كما تساهم القواعد الفقهية في وحدة الأمة الإسلامية عن طريق أعظم مشروع لها في التاريخ، وهو معلمة القواعد الفقهية التي يضطلع بأعبائها مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في جدة، لتوحيد الفكر التشريعي، والمنطلقات الأساسية للفقه بين البلاد الإسلامية، ومن جميع المذاهب الفقهية، وكتب التراث الإسلامية.

رابعاً: القواعد الفقهية والمستجدات المعاصرة:

إن الداعية المسلم، فقيهاً كان أو مفتياً، أم محدّثاً، أم مفكراً، يواجه شؤون العصر، وتطور الأحداث ومستجدات التقدم التي تتسارع على الساحة، وتحتاج إلى معرفة حكمها الشرعي، وموقف الدين منها، فتأتي القواعد الفقهية سلاحاً ماضياً، ووسيلة ناجعة، فيستعين بها الداعية والفقيه والمفكر، ويجد بها ضالته، ولذلك يرجع إليها جميع العلماء والفقهاء المعاصرين للاحتكام إليها، والاستناد إلى مضمونها، لمعرفة الأحكام الفقهية للقضايا الجديدة، والمسائل المعاصرة، وحل المشكلات المعقدة، واستنباط الحلول الشرعية للمسائل الطارئة.

فمن ذلك «المشقة تجلب التيسير» وقاعدة «الضرر يزال» وقادة «الضرر لا يزال بمثله» وقاعدة «إذا ضاق الأمر اتسع» وقاعدة «لا ينكر تغير الأحكام (المبنية على العرف والمصالح) بتغير الأزمان» وقاعدة «التابع تابع» أي التابع في الوجود والواقع لغيره، تابع له في حكمه، وقاعدة «التابع لا يفرد بالحكم» وقاعدة «الاجتهاد لا ينقض بمثله».

وهذا ما قصده السيوطي –رحمه الله تعالى– بقوله: «وظيفة القواعد

الفقهية» ومعرفة أحكام المسائل التي ليست بمسطورة، والحوادث والوقائع التي لا تنقضي على مر الزمان»[1].

ويرجع جميع العلماء اليوم إلى القواعد الفقهية القائمة على العرف الذي يلعب دوراً كبيراً في حياتنا المعاصرة ومعاملاتنا المتكررة، وهي كثيرة، منها قاعدة «العادة محكّمة» «الثابت بالعرف ثابت بدليل شرعي» «الكتاب كالخطاب» بحسب العرف، «الإشارة المعهودة من الأخرس كالبيان باللسان» «المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً» «استعمال الناس حجة يجب العمل بها» «إنما تعتبر العادة إذا اطَّردت أو غُلّبت» «العبرة للغالب الشائع لا للنادر» «الحقيقة تترك بدلالة العادة» «التعيين بالعرف كالتعيين بالنص» «المعروف بين التجار كالمشروط بينهم».

وهذا يؤكد -في مجال الدعوة- صلاحية الشريعة للتطبيق في كل زمان ومكان ومسايرة الشريعة لركب الحياة المتغيرة، ومواكبة تطور العصر، وما يتعامل به الناس في تحقيق مصالحهم دون أن يخالف الشرع.

خامساً: القواعد الفقهية وجمع الكلمة:

إن القواعد الفقهية لا توحد شعوب الأمة فحسب، بل تساهم في جميع الكلمة، وتوحيد الصف، ونبذ التعصب المذهبي الذي ساد بين المسلمين في عصر الجمود والتخلف، ورفع عقيرته من جديد، حتى صدرت أعمال وأقوال يندى لها الجبين، وتتنافى مع الآداب الشرعية، والأحكام الفقهية، والقيم الدينية، وسيرة السلف الصالح والأئمة المجتهدين.

---

(١) الأشباه والنظائر في الفقه الشافعي للسيوطي ص٦.

ولذلك وردت بعض القواعد الفقهية التي تدعو إلى احترام العلماء والفقهاء وأئمة المذاهب وتقدّر آراء المخالفين، من دون تزمت، ولا تشنج، ولا تشكك، ولا طعن، ولا غمز، ولا لمز، فقد تدعو القواعد الفقهية إلى الأخذ بالأحكام التي تقرب بين المذاهب، فمن ذلك قاعدة «الخروج من الخلاف مستحب» ولذلك قال الشافعية بأمور وأحكام تخالف مذهبهم، وتراعي الأقوال الواردة في المذاهب الأخرى، فقالوا في استحباب الدلك وهم لا يقولون بالدلك في الأصل، وقالوا باستيعاب مسح ربع الرأس، وترك صلاة الأداء خلف القضاء، وعكسه، وغسل المني بالماء مع أنهم يقولون بطهارة المني ويكفي فيه الفرك، وترك قصر الصلاة في أقل من ثلاث مراحل، مع أن الشافعية يجيزون القصر والجمع بين مسافة العدوى، وهي نصف مسافة القصر المعروفة، ويقولون باستحباب قطع المتيمم للصلاة إذا رأى الماء خروجاً من خلاف الحنفية[1].

ومن ذلك قاعدة «لا ينكر المختلف فيه، وإنما ينكر المجمع عليه» وهي ركيزة أساسية في المناظرة، والجدال، والخلاف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدراسة والبحث والمناظرة.

ولذلك قرر العلماء القاعدة الفقهية الأساسية في القضاء والسياسة الشرعية، ونصها «حكم الحاكم يرفع الخلاف» يعني إذا قضى القاضي بحكم مختلف فيه، أو أمر به الإمام والحاكم، فإنه يرفع المنازعة والاختلاف، ويصبح في حيز المتفق عليه الذي يجب تنفيذه من دون اعتراض.

لكن يشترط لمراعاة الخلاف والأخذ به شروط، منها: أن لا يوقع في خلاف آخر، وأن لا يخالف سُنّة ثابتة مثل رفع اليدين في الصلاة عند الركوع

---

(١) المرجع السابق ص١٥١.

والرفع منه، لثبوته في السنة برواية خمسين صحابياً وبشرط أن يكون الخلاف قوي المدرك والمأخذ، وله دليل[1]، ولذلك لا يعتد بخلاف الأقوال الشاذة الضعيفة التي يسميها الفقهاء خلافاً لا اختلافاً، لأن مراعاة الخلاف مطلوب للأخذ بالاحتياط، والاستبراء في الدين.

وكم يحتاج الدعاة والعلماء والفقهاء اليوم إلى وحدة الكلمة، وجمع الصف، وَلَمِّ الشمل ليكون المسلمون كما أراد رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد في السهر والحمى»[2]، وهو ما طلبه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، كما حذر القرآن الكريم من تشتيت الكلمة، وتفرق الصفوف، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

سادساً: القواعد الفقهية والمنهج النبوي:

إن استخدام القواعد الفقهية الكلية في الدعوة هو التزام وتطبيق لمنهج النبي ﷺ في الدعوة، فقد أوتي رسول الله ﷺ جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، فينطق بالحكمة، ويقول القاعدة الكلية التي تتضمن المعاني الكثيرة، والأحكام العديدة، والحكم البالغة الرشيدة فيتلقفها الصحابة والعلماء، وكان رسول الله ﷺ يضع أمور الدين في ضوابط وقواعد عامة تشمل العبادات وأحكام الأنفس والأموال والمعاملات، ومختلف جوانب

---

(١) المرجع السابق ص١٥٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم «نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ٢٤٦/١».

الحياة، فتكون منارة وضياء، وهدى ونوراً، تقع في قلوب الصحابة وعقولهم، وتبقى تشريعاً وأساساً لسائر المسلمين حتى تقوم الساعة، تستنبط منها الأحكام والعِبَر والإرشادات والمواعظ.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نقتصر على تعداد قبس منها، كقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» «الدين النصيحة» «المسلمون على شروطهم» أو «المؤمنون على شروطهم» «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» «الخَرَاجُ بالضمَّان» «الحلال بيِّن والحرام بيّن» «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ» «كل محدثة بدعة» «كلُّ راع مسؤول عن رعيته» «كلُّ مسكر حرام» «كلُّ شرط ليس في كتاب الله فهو باطل» «العجماء جرحها جُبار» والعجماء هي البهيمة التي لا تنطق، فإن إتلافها وضررها هدْر، «البيِّنة على المدعي، واليمين على من أنكر» «ما أسكر كثيره فقليله حرام» «العارية مضمونة مؤداة».

لا شك أن المنهج النبوي في الدعوة والبيان والتعليم والشريعة هو المنهج الأمثل، فهو الداعية الأول الذي اصطفاه الله واختاره، وأدبه فأحسن أدبه، وهو المبلّغ عن ربه، وبُعث معلماً ومربياً، ثم أمرنا الله تعالى بالاقتداء به، فقال عزّ وجلّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد آتى منهج رسول الله ﷺ في الدعوة أُكُله، وحقق النتائج الباهرة التي كانت إحدى معجزاته في نشر الدعوة، والإقناع بها، وتبليغها للناس، وتربية جيل الصحابة الذي يعتبر أفضل جيل عرفه التاريخ وهو أحد منجزات

ومعجزات التربية النبوية ومنهجها الحكيم الرباني.

والقواعد الفقهية لها مجالاتها الكثيرة، فإنها تحدد سلطات الحكام، وتضبط تصرفاتهم مثل قاعدة «تصرفات الإمام (ومن في حكمه) منوطة بالمصلحة» وقاعدة «الولاية الخاصة (للأب والجد والوكيل والوصي) مقدّمة على الولاية العامة» للحاكم، وتلعب القواعد الفقهية دوراً عظيماً في التدريس، فيتلقفها الطالب، ويتذوق حلاوتها، ويسهل عليه حفظها، ويدرك أبعادها، وتضبط له الفروع الكثيرة، وتكوِّن عنده الملكة الفقهية ليكون عالماً في المستقبل، كما تساعد القواعد المدرّس والأستاذ في توضيح المواضيع، وبيان الحكم، وتعليل الآراء، واختصار الجوانب وإقناع الطلاب، لأن القواعد مستقرة في الأذهان وقريبة المنال.